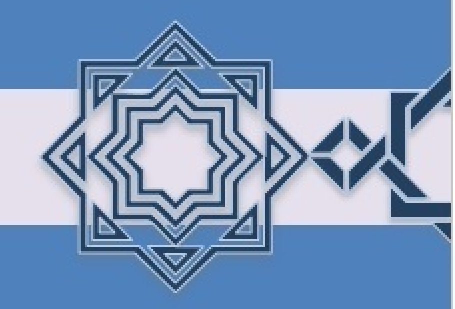
الأبحاث والدراسات 66

التطور التاريخي لمنطقة الباحة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (*)



أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : منطقة الباحة : دراسات، وإضافات، وتعليقات (ق1 - ق15هـ / ق 7 - ق 21 م)، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع الحميضي، 1440هـ / 2019م)، (الجزء الأول)، ص ص 77 - 110.

الدراســـة الثانيـــة

التطور التاريخي لمنطقة الباحة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة :

بقلم : أ . د . غيثان بن علي بن جريس (*)

(*) نشرت هذه الدراسة في :
(موسـوعة المملكة العربية السعودية : المحور التاريخي، المجلد رقم (١٦)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م)، ص ص ١٣٣ - ١٥١، ثم أعيد نشرها في كتاب : تاريخ تهامة والسراة، خلال القرن الإسلامي المبكرة الوسيطة (ق١ - ق١٠هـ / ق٧ - ق١٦م) (الجزء الثاني) ط١ (٣١ - ١٤٣٢هـ / ٢٠١ - ٢٠١١م)
الرياض : مطابع الحميضي، ص ص ١٣٣ - ١٩١

الدراسة الثانية : التطور التاريخي لمنطقة الباحة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة

أولاً- منطقة الباحة[1] : الاسم، التركيبة الجغرافية والبشرية :

١ - أصل الاسم :

عندما بحثنا في القواميس اللغوية عن كلمة (الباحة) ومصدرها والمترادفات الخاصة بها وجدناها جاءت من التبحبح، والمقصود بذلك السعة في النفقة، أو في الأرض، أو في المنزل[٢]. ويقال: القوم في ابتحاح أي في سعة وخصب من أرضهم، والبحبوحة وسط المحلة، أو وسط الدار. قال جرير:

قومي تميم هم القوم الذين هم ... ينفون تغلب عن بحبوحة الدارِ

وفي الحديث: أن الرسول ﷺ، قال: ((من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد))، قال أبو عبيدة: أراد ببحبوحة الجنة وسطها. قال: وبحبوحة كل شيء وسطه وخياره[٣]. ويقال: قد تبحبحت في الدار إذا توسطتها وتمكنتُ منها. والتبحبح: التمكن في الحلول والمقام، وقد بحبح وتبحبح إذا تمكن وتوسط المنزل والمقام، قال: ومن حديث غناء الأنصارية:

وأهدى لها كبشاً ... تبحبح في المربد[٤]

أي متمكنة في المربد، وهو الموضع أو المكان. وفي حديث خزيمة: ((**تفطر اللحاء وتبحبح الحياء أي اتسع الغيث وتمكن من الأرض**))[٥].

وإذا نظرنا إلى منطقة الباحة وجدناها أرضاً تحيط بها الهضاب والجبال من كل جانب، فليست هي تلك الأرض الواسعة الفسيحة، وإنما تتوسط البلاد التي تقع بها، وتحيط بها القرى والجبال والمزروعات المختلفة من كل جانب.

---

(١) استخدام كلمة (منطقة) هنا، وهو مصطلح حديث، تجاوزاً من أجل توضيح إطار البلاد المعنية في هذه الدراسة، وهي جميع نواحي بلاد غامد وزهران المعروفة اليوم باسم (إمارة الباحة)،وهي إحدى المناطق الرئيسية في المملكة العربية السعودية التي أصبحت إمارة مستقلة، تراجع وزارة الداخلية في الرياض منذ عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م). بينما كانت قبل عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤ م) تابعة لإمارتي الطائف وبيشة،ثم فصلت عنهما، واتخذت الظفير مركزاً للإمارة حتى عام (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)،ثم انتقلت إلى بلجرشي، وأخيراً منذ عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) أصبحت مدينة الباحة هي الحاضرة الرئيسية لعموم بلاد غامد وزهران . انظر: محمد بن مسفر حسين الزهراني، بلاد زهران، (الرياض:الرئاسة العامة لرعاية الشباب،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)،٣٩؛ صالح عون الغامدي، الباحة، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)،٤٥.

(٢) جمال الدين أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م)، جـ١،٣٢٢ – ٣٢٣ . فعل (بحح).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

٢ - التركيبة الجغرافية:

تقع منطقة الباحة في موقع إستراتيجي متميز، إذ تتصل حدودها ببلاد الحجاز شمالاً، وبلاد عسير (جرش قديماً)[(١)] جنوباً، يحيط بها عدد من الحواضر الرئيسية، كالطائف من الشمال، وبيشة وأبها من الشرق والجنوب، والليث والقنفذة من الغرب والجنوب الغربي على ساحل البحر الأحمر[(٢)]، ويحدها شمالاً بلحارث (بنو الحارث) وبنو مالك. وجنوباً بنو عيسى، وبنو زبيد، وبنو بحير، وبنو سهيم، والعوامر، وبنو ميمون، وهي من قبائل بلقرن، وبلعريان وخثعم. وشرقاً بعض بادية بني ميمون وأكلب من قبائل البقوم وشمران. ومن الشمال الشرقي سبيع، وغرباً الليث، ومن الجنوب الغربي القنفذة [(٣)].

وتنقسم تضاريس منطقة الباحة إلى قسمين رئيسين هما: مرتفعات جبال السروات وسهول تهامة[(٤)]. ومرتفعات السراة جزء من سلسلة جبال السروات الممتدة من بلاد الشام حتى قعر اليمن[(٥)]،وهذه المرتفعات الواقعة في بلاد الباحة، شديدة الانحدار نحو الغرب، قليلة المنافذ، صعبة المسالك، يزيد ارتفاعها على (٢٢٠٠) متر تقريباً، فوق سطح البحر[(٦)]. ويوجد بها عدد من الهضاب والجبال والأودية المتفاوتة الأحجام والأطوال [(٧)].

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن بلاد جرش (عسير الحالية)، انظر: أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. (بيروت: دار القلم، د. ت)، جـ ٤، ٢٣٣ – ٢٣٤؛ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر، (١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م)، جـ ١، ٣٣٧ – ٣٣٨؛ حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، نصوص، انطباعات، مشاهدات. (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م)، ٤٢ – ٤٩؛ غيثان بن علي بن جريس، "تاريخ مخلاف جرش (عسير) خلال القرون الإسلامية الأولى"، مجلة العصور، مج ٩، جـ ١، (١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م)، ٦٣ – ٧٨.

(٢) الزهراني، محمد بن مسفر. بلاد زهران، مرجع سابق، ١١ – ١٧.

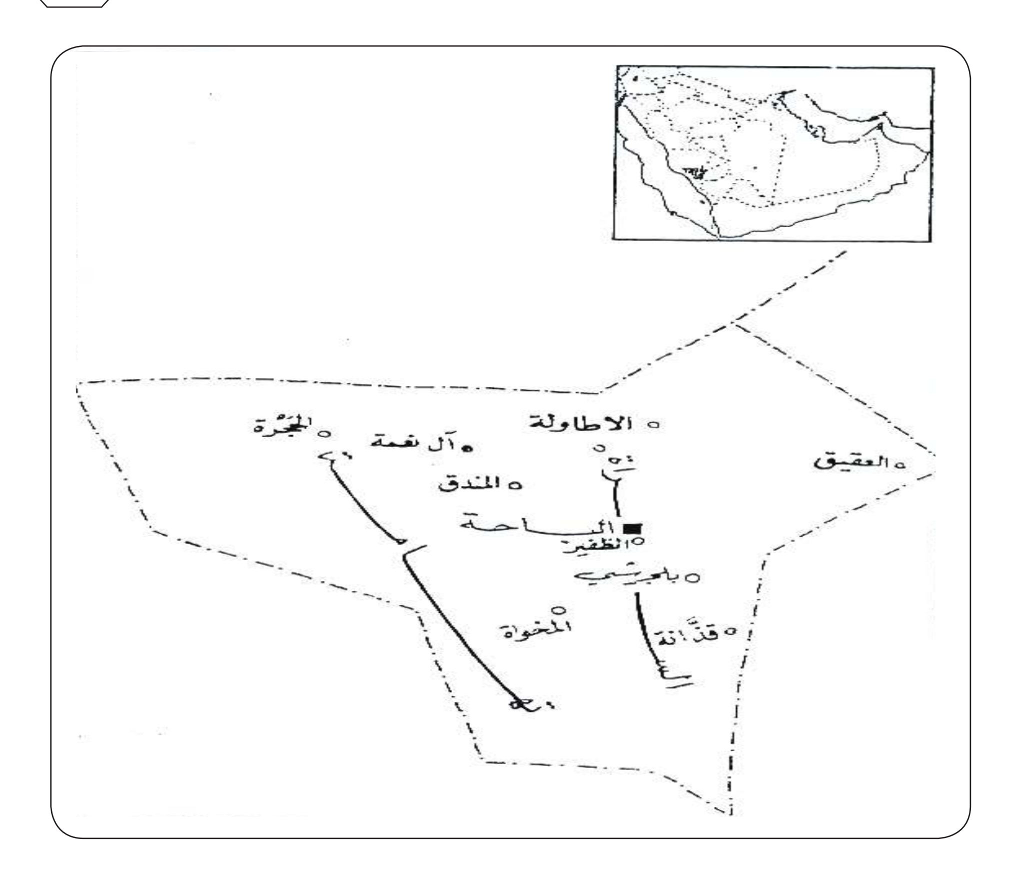
(٣) المرجع السابق، ولمزيد من الإيضاح انظر: علي بن صالح السلوك، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد غامد وزهران، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م)، ١١ – ١٢؛ الغامدي، ١٧ – ٢٢؛عاتق بن غيث البلادي، بين مكة واليمن، (رحلات ومشاهد)، (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م)، ٣٨ وما بعدها.

(٤) الزهراني، محمد بن مسفر. بلاد زهران،مرجع سابق، ١١، ١٤؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق،٨٣ وما بعدها، ٣٥١؛ الغامدي، صالح عون. الباحة، مرجع سابق، ١٧ وما بعدها.

(٥) المراجع السابقة؛ وللمزيد عن جبال السروات المعروفة أيضاً بـ (جبال الحجاز)، انظر: صالح أحمد العلي، "تحديد الحجاز عند المتقدمين"، مجلة العرب، جـ ١، (١٣٨٨هـ/ ١٩٧٨ م)، ١ – ٩؛ عبد الله الوهيبي، "الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب"، مجلة كلية الآداب، (جامعة الرياض:١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ،جـ١،٥٣ – ٧٠.

(٦) السلوك، علي بن صالح. المعجم، مرجع سابق،١١ – ١٢؛ الزهراني، محمد بن مسفر. بلاد زهران،مرجع سابق، ١١، ١٤ ؛ الغامدي،صالح عون. الباحة، مرجع سابق، ١٧ وما بعدها؛ وللمزيد، انظر: عبد الرحمن صادق الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية. إقليم جنوب غرب المملكة، (الرياض:دار المريخ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م)، جـ ٢، ٢٠٥ وما بعدها؛ البلادي، عاتق بن غيث. بين مكة وحضرموت،١١٧ وما بعدها.

(٧) الزهراني،محمد بن مسفر. بلاد زهران، مرجع سابق. السلوك، علي بن صالح. المعجم، مرجع سابق، ١١– ١٥؛ الغامدي،صالح عون. الباحة، مرجع سابق،١٧ – ٢١؛ فؤاد حمزة، في بلاد عسير، (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م)، ٩١.



خارطة إمارة منطقة الباحة المعروفة ببلاد غامد وزهران المصدر: حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، ٨٤ .

أما سهل تهامة الباحة فهو جزء من سهل تهامة الذي يمتد من أقصى شمال الجزيرة العربية إلى أقصى جنوبها، والمنحصر بين سلسلة جبال السروات شرقاً والبحر الأحمر غرباً، ويراوح طول سهل تهامة منطقة الباحة من تهامة بني مالك شمالاً إلى خثعم وبلقرن وشمران جنوباً [١]، بين (١٥٠ و٢٥٠) كم تقريباً، ويراوح عرضه من سفوح جبال السروات شرقاً إلى بلدتي الليث والقنفذة على البحر الأحمر غرباً بين (١٠٠ و١٥٠) كم تقريباً[٢]، ويأخذ سهل تهامة منطقة الباحة في الارتفاع التدريجي، كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق، ولهذا نجد سطحه يتكون من ثلاثة أقسام رئيسية هي: تهامة الساحل في الغرب (ويطلق الأهالي على هذا الجزء من سهل تهامة "الخبت")، وكذلك تهامة العروض في الوسط، وتكثر فيها الجبال المعترضة ذات الارتفاع الشاهق. وتهامة الأصدار في الشرق[٣]، ويوجد

(١) المراجع السابقة.

(٢) المراجع السابقة؛ البلادي، عاتق. بين مكة واليمن،مرجع سابق، ٦٧ وما بعدها.

(٣) الزهراني، محمد بن مسفر. بلاد زهران، مرجع سابق، ١٤ — ١٥.

فيها جبال شاهقة الارتفاع غزيرة المياه، خصبة التربة، آهلة بالسكان، أهمها: جبل شدا، وجبل نيس، وجبل ربا، وجبل نخرة، وتشتهر هذه الجبال بزراعة البن والموز، والليمون، وفي قممها تعيش الوحوش الكاسرة مثل: الذئاب والأسود، والنمور[١].

٣ - التركيبة البشرية:

تعيش في منطقة الباحة قبيلتان كبيرتان هما غامد وزهران الأزديتين[٢]، فإذا أطلقنا مصطلح بلاد الباحة بمفهومها الإداري الواسع فذلك يعني بلاد غامد وزهران، وسوف يرد معنا هذا المصطلح (غامد وزهران) وأحياناً (دوس) في صفحات البحث، لأن اسم الباحة بصفته مصطلحاً سياسياً إدارياً، وحاضرة رئيسية لبلاد غامد وزهران لم يعرف إلا في العصر الحديث، وفي مدة زمنية لا تزيد على القرنين تقريباً[٣].

وغامد وزهران قبيلتان أزديتان من أصول قحطانية يصل نسبهما إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٤]. وأخذت قبيلة غامد اسمها من جدها غامد، وهو عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد[٥]، وسمي غامداً لأنه كان وقع بين قومه شيء فأصلحه، وتغمدهم بذلك فقال:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الأزد من القبائل العربية اليمنية المشهورة، وتنسب إلى أزد بن الغوث بن يعرب بن يشجب بن قحطان، انظر: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، راجعه: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م)، ٣٢٩، ٤٨٤؛ أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري، التعريف في الأنساب والتنويه لذوي الأحساب، تحقيق: سعد عبد المقصود ظلام. (القاهرة: دار المنار، ١٩٨٦ م)، ١٧٣ وما بعدها؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٠٦ – ٢٢٤.

(٣) لا نجد ذكراً لاسم (الباحة) قبل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وإنما كانت تعرف قبل ذلك ببلاد غامد وزهران، وأحياناً تعرف هي وما جاورها من القبائل الأخرى في بلاد السراة، بـ (السرو) أو (السروات) أو (السراة). انظر: الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع. (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م)، ٢٦٠؛ غيثان بن علي بن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق ١ هـ – ق ١٠ هـ/ ق ٧ م – ق ١٦ م) (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م)، جـ ١، ١٢٧ – ١٩٦.

(٤) ابن حزم، أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد. جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٣٢٩ – ٤٨٤؛ الأشعري، أحمد بن محمد بن إبراهيم. التعريف، مرجع سابق، ٢٠٦ – ٢٢٤، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، ترتيب: يوسف أسعد داغر (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م)، مج ١، جـ ١، ١٦١ وما بعدها؛ ولمزيد من الإيضاح عن قبائل الأزد في بلاد السراة وغيرها من البلدان، انظر: عبد الملك بن قريب الأصمعي، تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، (بغداد: مطبعة المعارف ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م)، ٨١ وما بعدها؛ الهمداني، الحسن بن أحمد. صفة جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٧٠ – ٣٧٤.

(٥) أبو بكر محمد الحسن بن دريد، الاشتقاق،تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (القاهرة:مكتبة الخانجي،١٩٨٥م)،جـ٢، ٤٩٢؛ الجاسر،حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٤٩.

تحملت للصلح الـثـأى عـن عشيرتي فأسماني القيل الحضوري غامدا[(١)]

كذلك سميت زهران باسم جدها زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصـــر الأزد[(٢)] ،وإذا كان غامد هو عبدالله فهو شـقيق لزهران، مع أن بعض كتب الأنسـاب تشـير إلى أن غامد هوولد لعبدالله[(٣)] ، وبالتالي فزهران يصـبح عماً لغامد[(٤)] . وكانت قبيلتا غامد وزهران ضـمن قبائل الأزد التي نزحت من اليمن على أثر انهدام سـد مأرب، وتفرقت مع غيرها في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية[(٥)] . ويذكر أن قبائل الأزد افترقت إلى نيف وعشـرين قبيلة توزعت داخل الجزيرة العربية وخارجها[(٦)] . ومنها قبائل غامـد وزهـران التي نزلت مرتفعات السـروات وعرفت باسـم (أزد السـراة) ، وأحياناً بـ (السـرو)[(٧)] ، وسار بعض أولاد دوس بن عدثان بن زهران إلى أرض تهامة فأقاموا بها[(٨)] .

---

(١) يقال: إنه وقع بين عشيرته شر فتغمد ذنوبهم، أي غطاها وسترها، ومنه الغمد، وكان ابن الكلبي يقول: سماه بهذا الاسم قيل من أقيال حمير، وينشد بيتاً:

تلافيت شراً كان بين عشيرتي فأسماني القيل الحضوري غامداً.

ويقال: غمدت السيف وأغمدته لغتان. وبرك الغماد موضع، وكان الأصمعي يقول: اشتقاق غامد من قولهم : غمدت الركيُّ:إذا كثر ماؤها. للمزيد انظر: ابن دريد، أبو بكر محمد الحسن. الاشتقاق، مرجع سابق، جـ ٢، ٤٩٢.

(٢) المرجع السابق، جـ٢، ٤٩١، ٤٩٦ — ٥١٥.

(٣) ابن حزم، ٣٧٧ — ٣٧٩.

(٤) المرجع السابق،

(٥) للمزيد، انظر: ابن دريد، أبو بكر محمد الحسن. الاشـتقاق، مرجع سـابق، جـ ٢، ٤٨٠ وما بعدها؛ ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنسـاب العرب، مرجع سابق، ٣٨٢ وما بعدها؛ الهمداني، الحسـن بن أحمد. صفة جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٧٠ — ٢٧٤؛ الأشـعري، أحمد. التعريف، مرجع سـابق، ١٧٣ وما بعدها؛ الجاسـر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٠٦ — ٢٢٤.

(٦) مـن قبائل الأزد: غسـان، وجفنة، والأوس، والخزرج، وخزاعة، ومـازن، وثمالة، وخثعم. فنزلت الأوس والخزرج يثرب (المدينة المنـورة) ، ونزلـت خزاعة بطن مر الظهران بالقرب من مكة. وزهران وغامد وبعض أولاد أنمار بن أراش بن عمرو، وأولاد الحجر بـن الهنـو وغيرهم نزلوا بلاد السـروات الواقعة بـين أبها والطائف. للمزيـد، انظر ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنسـاب العرب، مرجع سـابق،٣٨٢؛ وما بعدها، الأشعري، أحمد. التعريف، مرجع سابق، ١٧٣ وما بعدها؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سـابق، ٢٠٦ — ٢٢٤، غيثان بن علي بن جريس، نجران: دراسـة تاريخية حضـارية (ق ١ — ق ٤ هـ/ ق ٧ — ق ١٠ م) ، (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م) ، جـ ١، ٣٣ — ٣٤.

(٧) أزد السـراة أو (السـرو) : هي القبائل التي استوطنت البلاد الممتدة من شمال أبها إلى بلاد زهران. وعموم هذه القبائل نزلت في مواطنها الحالية منذ العهود السـابقة لعصـر الإسـلام، ولا تزال تعيش فيها إلى يومنا الحالي. للمزيد عن مسميات هذه القبائل وأنسـابها وتاريخها انظر: الهمداني، الحسـن بن أحمد. صـفة جزيرة العرب، مرجع سـابق، ٢٦٠ — ٢٦٣، ٢٦٨ — ٣٧٤؛ جـواد علي، المفصـل في تاريخ العرب قبل الإسـلام، (بغـداد: جامعة بغـداد، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م) ،جـ٤، ٤٣٨ ومـا بعدها؛ ابن جريس، غيثان. دراسـات،مرجع سـابق، جـ ١، ٢٤ وما بعدها؛ وللمؤلف نفسه انظر: "بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل (ق٣ هـ–ق ٨ هـ) "، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣، مجـ١، (١٩٩٤ م) ، ٧٣ — ١٠٠.

(٨) دوس: هو أحد أحفاد زهران بن كعب. انظر:ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنسـاب العرب، مرجع سـابق، ٣٧٩؛ الهمداني، الحسـن بن أحمد. صفة جزيرة العرب، مرجع سـابق، ٢٦٠ وما بعدها؛ابن دريد، الاشتقاق جـ٢، ٤٩٦؛ غيثان بن علي بن جريس،"بلاد السـراة من خلال كتاب صـفة جزيرة العرب للهمداني " مجلة الدارة،ع٣،س ١٩، (١٤١٤هـ) ،٧٦ — ١١١.

كما خرجت مجموعات من رجال غامد وزهران إلى خارج حدود منطقتهم (منطقة الباحة اليوم)، فمثلاً: بعض من قبيلة دوس من زهران التي انتشر بعض رجالها في شرقي شبه الجزيرة العربيّة حيث كونوا إمارة عربية في عمان قبل الإسلام واستمرت حتى ظهور الإسلام، ولا تزال فروع من الأزد أكثرهم من دوس يحافظون ويقيمون هناك على أنسابهم(١). ويلاحظ في كتب التراث أن لفظ (دوس) قد طغى إلى حد كبير على لفظ زهران وأحياناً غامد في الجاهلية وصدر الإسلام. وهذا ما جعل بعض المؤرخين يكتفون بذكر دوس بدلاً من زهران، بينما ظن آخرون أن دوساً قبيلة مستقلة تماماً عن غامد وزهران، وهذا خطأ. فدوس قبيلة من قبائل زهران، وجزء لا يتجزأ منها(٢). وأفضل قول لغلبة اسم دوس هو ما ذكره أحد الباحثين المتأخرين(٣) عندما ذكر أن رجال قبيلة دوس انتشروا خارج بلادهم، وتمكن بعضهم من تأسيس إمارتين عربيتين في عمان والحيرة(٤). كما أن بعض الدوسيين سارعوا في قبولِ الدعوة الإسلامية، كما سيأتي معنا، فنالوا مكانة سامية في صدر الإسلام. هذا فضلاً عما عُرف عن رجال دوس من إخلاص وصدق في تلقي الدعوة (٥)، وما أظهروه من شجاعة وإقدام في الفتوحات الإسلامية، ما زاد في رفع منزلة القبيلة واشتهارها. وعلى هذا الأساس إذا قلنا فلانٍ الدوسي، فهو في الأصل من أولاد زهران(٦). وبالتالي فجميع سكان منطقة الباحة قديماً وحديثاً، (سراة وتهامة) هم من أصول غامدية وزهرانية أزدية قحطانية(٧).

(١) الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٦٢. كما عبر قسم آخر الخليج العربي إلى بلاد فارس، وسكنوا أحد جبال كرمان ويدعى القفس. وسكن بعض الدوسيين الحيرة ونواحيها من بلاد العراق وأسسوا مملكة بها، كان من أشهر ملوكها جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس الملقب بالأبرش. انظر: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م)، جـ١، ٢٠٨ – ٢٠٩؛ شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م)، جـ٤، ٣٨٠ – ٣٨١.

(٢) ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب، ٣٧٩؛ ابن دريد، أبوبكر محمد الحسن. الاشتقاق، مرجع سابق، جـ٢، ٤٩٦.

(٣) الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٤) المرجع السابق، ٢٦٢، ٢٦٦ – ٢٦٧؛ للمزيد انظر: اليعقوبي، أحمد. تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، جـ١، ٢٠٨ – ٢٠٩؛ ياقوت، شهاب الدين . معجم البلدان، مرجع سابق، جـ٤، ٣٨٠ – ٣٨١.

(٥) الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٦٦ وما بعدها؛ وللمزيد عن أخبار قبول بعض رجال دوس لدعوة الإسلام وإخلاصهم لها، انظر: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. السيرة، مرجع سابق، جـ٢، ٢١ – ٢٥؛ جمال الدين بن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعجي. (حلب: دار الوعي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، جـ١، ٦٠٠ – ٦٠٤؛ عز الدين بن علي بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، جـ٣، ٥٤ – ٥٥.

(٦) ابن دريد، أبو بكر محمد الحسن، الاشتقاق، مرجع سابق، جـ٢، ٤٩٦؛ ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٣٧٩؛ للمزيد انظر: ابن جريس، غيثان. دراسات في تاريخ تهامة والسراة، مرجع سابق، جـ١، ٥٥ – ٩١.

(٧) لمزيد من الإيضاح عن بطون وأفخاذ قبيلتي غامد وزهران اليوم التي استوطنت أمكنتها الحالية منذ عهود ما قبل الإسلام، ومدينة الباحة التي تأتي في أرض قبيلة غامد هي العاصمة الإدارية لعموم بلاد غامد وزهران في الأجزاء السروية والتهامية، وبخاصة منذ أوائل العقد التاسع للقرن الهجري الماضي، في حين أن بلدتي الظفير ثم بلجرشي كانتا مركزاً لإمارة المنطقة خلال العصر الحديث، وقبل أن تصبح الباحة إحدى الإمارات الرئيسية في المملكة

ثانياً - تاريخ الباحة في العهد النبوي:

١ - عصر الدعوة المكية :

كانت قبيلة قريش أشد القبائل عداوة وكراهية لدعوة الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ، ولم تقتصر محاربة القرشيين للإسلام في حصر أنشطتهم في إطار مكة ومجتمعها، وإنما كانوا يسعون إلى الاتصال بالقبائل والشيوخ في بلدان ونواح أخرى في الجزيرة العربية، فيوصونهم ويحرضونهم على بذل ما يستطيعون لمحاربة الرسول الكريم ﷺ والدين الذي جاء به إلى مجتمع الحجاز، ثم إلى عموم المجتمعات(١).

وكان سكان قبيلتي غامد وزهران في بلاد الباحة (سراة وتهامة) من أوائل الأقوام الذين حُرضوا من القرشيين لمعاداة الرسول ﷺ والوقوف في طريق دعوته. وتذكر لنا كتب التراث الإسلامي قصة الطفيل بن عمرو الدوسي الزهراني الذي كان أحد شيوخ وأعيان قبيلة دوس الزهرانية، وكان على صلات تجارية واجتماعية مع بعض أعيان قريش كأبي سفيان بن حرب وغيره(٢)، لكنه كان من أوائل الداخلين في دين الإسلام. وقصة دخوله الإسلام مع بعض أهل بيته في فترة المرحلة المكية، كما يذكرها ابن هشام أن الطفيل قدم ذات يوم من بلاده إلى مكة، فقابله وجهاء مكة وشكوا إليه الرسول ﷺ وحذروه من السماع إليه(٣)، ووصفوه بالساحر الذي يفرق بين الرجل وأبيه وأخيه وزوجته، وأعربوا له عن خوفهم عند سماعه أن يدخل فيما يدعو إليه، كما حصل لبعض القرشيين الذين دخلوا في الإسلام من قبل(٤)، وقد تأثر الطفيل مما سمعه من أشراف قريش عن

العربية السعودية في عام (١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م). انظر: الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٥٤ وما بعدها؛ حمد بن إبراهيم الحقيل، كنز الأنساب ومجمع الآداب، (الرياض: مطابع الجاسر، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م)، ١٩٩، ٢٢٨؛ السلوك،علي بن صالح، المعجم، مرجع سابق، ١١ وما بعدها؛ الغامدي،صالح عون. الباحة، مرجع سابق، ٤٥ — ٤٨؛ الزهراني،محمد بن مسفر. بلاد زهرن، مرجع سابق، ٣٤ — ٤٠.

(١) لمزيد من التفصيلات عن أساليب قريش في محاربة الإسلام،انظر:اليعقوبي،أحمد. تاريخ، مرجع سابق، جـ٢، ٣٦ وما بعدها؛ ابن هشام، عبدالملك. السيرة،مرجع سابق، جـ٢،٩ وما بعدها؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (بيروت:دار سويدان، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م)، جـ٣، ٣٩٥ وما بعدها.

(٢) محمد بن حبيب البغدادي، كتاب المنمق في أخبار قريش، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق. (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م)، ١٩٩ — ٢١١؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٧٤ — ٢٧٩؛ للمزيد، انظر: ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ١، ٨٤؛ ابن دريد،أبو بكر محمد الحسن. الاشتقاق، مرجع سابق، ٤٩٦؛ الجاسر،حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٧٤ وما بعدها.

(٣) ابن هشام، عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٢.

(٤) أي بعض القرشيين الأوائل الذين دخلوا الإسلام في مرحلة الدعوة المكية كأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وغيره من الصحابة الذين كانوا يجتمعون مع الرسول ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم خلال فترتي الدعوة السرية والعلنية في مكة قبل الهجرة إلى المدينة. للمزيد، انظر: ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ١، ٢٢٨، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٦٦ — ٢٧٩، ٣١١ — ٣١٢، ٣٣٦.

الرسـول ﷺ فوضـع في أذنيه كرسـفاً (قطناً) كي لا يسـمع ما يقوله ﷺ [١]، وعندما أدرك الطفيل أنه قادر على أن يميز بين الخبيث والطيب حدثته نفسه أن يسمعه فإذا كان ما يقوله ﷺ حسـناً قبله، وإن كانٍ دون ذلك تركه، وكأنه لم يسـمع شـيئاً، ثم ذهب إلى المسـجد فوجد الرسـول ﷺ قائماً يصلي فسـمع منه كلاماً ما سمعه قبل ذلك من لسان بشـر، وعندما أصـابت آيات القرآن قلب الطفيل فتحت مغاليق قلبه للإسلام، فأسرع إلى دار الرسول ﷺ وطلب منه أن يعرض عليه الإسلام، ثم ما لبث أن اطمأن قلبه للإسلام فأسـلم[٢]. وعرض الطفيل على الرسـول ﷺ أن يحمل رسـالة الإسلام إلى قومه دوس في أرض غامد وزهران، حيث إن له فيهم منزلة وهو فيهم مطاع، وطلب من الرسـول ﷺ أن يدعـو لـه، وأن يجعـل الله له عوناً في حمل الرسـالة إلى قومه، فقال الرسـول ﷺ : ((اللهم اجعل له آية))[٣]، وبدأ دعوته بالأقربين عقب عودته إلى منطقة الباحة فعرض الإسـلام على أبيه فأسـلم بعد أن قام وتطهـر، وقال: ((يا بني دينـي دينك))،ولكن أمه أنكرت الإسلام[٤]. كما وجد الطفيل زوجته تميل إلى الإسلام، فقال لها: "اذهبي إلى ذي الشرى[٥] وتطهري منه" ففعلت ذلك ثم أسلمت[٦].

---

(١) ابن هشـام،عبدالملك. السـيرة، مرجع سـابق، جـ ٢،٢١ – ٢٥؛ ابن الجوزي،جمال الدين. صـفة الصـفوة، مرجع سـابق،جـ١، ٦٠٠-٦٠٤؛ ابن الأثير، عز الدين . أسـد الغابة، مرجع سابق، جـ٣، ٥٤– ٥٥؛ أبو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين. (بيروت : دار الكتب العلمية،١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م)، مج ٢، جـ ٣، ١١٥ – ١٢٥.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) يشير ابن هشام إلى الآية التي جُعلت له، وهي نور بين عينيه، فسأل الله أن تكون في غير وجهه، حتى لا يقول قومه إنهـا (مُثلة) ويشـمتوا به لفراقه دينهم، فتحول النور إلى رأس سـوطه فكان يضـيء في الليـل، ولهذا لقب بـ (ذي النور). ابن هشـام،عبدالملك. السيرة، مرجع سـابق، جـ ٢، ٢٣؛ للمزيد، انظر: محمد عجاج الخطيب، أبو هريرة راوية الإسلام. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ت)، ٨٥.

(٤) ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ ٢، ٢٣.

(٥) ذو الشـرى: صـنم كان لدوس، وكانوا قد حموا حوله حمى يأتي إليه رجال دوس ونساؤها كي يتعبدوا عنده ويتقربوا إليه في قضاء حوائجهم. ابن هشام،عبد الملك. السيرة، مرجع سابق، جـ ٢، ٢٤. وكان في منطقة الباحة، بل في بلاد تهامة والسراة الواقعة بين اليمن والحجاز، عدد من الأصنام التي كان يتعبد إليها سكان هذه البلاد قبل الإسلام، ومنها: عائم، والسـعيدة، وذو الكفين، وذو الشـرى، وذو الخلصـة وكان أشـهرها، ويقع في سـروات غامد وزهران وخثعـم وبجيلة، ويسـمى بـ (الكعبـة اليمانية) لأن معظم قبائل السـراة الواقعـة بين أبها والباحة كانـت تفد إليه وتقدسـه. وكانت قبيلة خثعم المخالطة لقبائل غامد وزهران من الجنوب والجنوب الشـرقي هي السادنة الرئيسية لصـنم ذي الخلصـة. للمزيد انظر: أبو المنذر هشام محمد بن السائب الكلبي. الأصنام، (القاهرة: د. ن، ١٣٤٣ هـ) ٣٧، ٤٣؛ ابـن هشـام، عبدالملك. السـيرة، مرجع سـابق،جـ ١، ٨٨، جـ ٢، ٢٤؛ أبو الوليد محمـد بن عبد الله الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشـدي الصـالح ملحس. (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م)، جـ ١، ٣٧٤ – ٣٨٩؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٣٣٣ – ٣٥٠.

(٦) ابن هشام، عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ ٢، ٢٤.

وعلى الرغم من معارضة أمه للدعوة الإسلامية إلا أن معارضة قومه كانت أشد وأكبر، ويتضح ذلك حينما دعا قومه إلى الإسلام، فكثر رفضهم، واشتد إنكارهم له، وبعد أن أصابه اليأس من إسلام قومه عاد إلى الرسول ﷺ وطلب منه أن يدعو على قومه، ولكن الرسول ﷺ دعا لهم بالهداية وقال ((اللهم اهدِ دوساً))[(١)] وفي رواية أخرى ((اللهم اهد دوساً وارفق بها))، وقال له ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم[(٢)].

ويعود موقفهم المعارض من الإسلام إلى ميراثهم الوثني الذي حال بينهم وبين قبولهم الإسلام، فضلاً عن أن ميراثهم من العادات والتقاليد كان فاسداً وقدوتهم كانت على ضلال، وعاد الطفيل إلى عشيرته دوس الزهرانية يدعو قومه ومن حولهم من الزهرانيين والغامديين برفق، كما أوصاه الرسول ﷺ، وقد امتدت دعوته لهم عدداً من السنوات، لأن الرسول ﷺ هاجر إلى المدينة ومضت غزوات الرسول ﷺ الأولى (بدر، وأحد، والخندق)، ولم يزل أبناء دوس، ومن جاورهم من عشائر تهامة والسراة الأخرى، على حالهم من الكفر والعصيان[(٣)]. ويظهر أن قبيلة دوس، بل عموم قبائل منطقة الباحة ومن حولها قد تأخروا في إسلامهم إلى السنة السابعة للهجرة وما بعدها[(٤)].

٢ - عصر الدعوة المدنية :

بقي الطفيل بن عمرو الدوسي الزهراني يدعو قومه للإسلام منذ عودته من مكة في فترة الدعوة المكية حتى جاءت السنة السابعة للهجرة، ثم خرج ومعه نحو سبعين أو ثمانين رجلاً بذراريهم ونسائهم بمن فيهم أبو هريرة، وعبدالله بن أزيهر الدوسيان - رضي الله عنهما -[(٥)]، فقدموا المدينة كي ينضموا إلى مجتمع المسلمين فيها[(٦)]، لكنهم وجدوا

(١) المرجع السابق؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٣٦، ٢٩٣.

(٢) المرجع السابق؛ وانظر: الخطيب،محمد عجاج. أبو هريرة، مرجع سابق، ٨٥؛ الجاسر،حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٩٣.

(٣) ابن هشام، عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٤؛ للمزيد، انظر: ابن الجوزي، جمال الدين. صفة الصفوة، مرجع سابق،جـ١، ٦٠٢ – ٦٠٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، مرجع سابق، جـ ٤، ٥٤ – ٥٥؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق،٢٩٣.

(٤) للمزيد انظر: ابن سعد،محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥ – ٣٤٨، ٣٥٢ – ٣٥٣، ٣٥٧.

(٥) ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٤، محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، (بيروت: عالم الكتب، د. ت)؛ شمس الدين محمد بن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م)،جـ٣، ٦٢٤ – ٦٢٨؛و لمزيد من المعلومات عن أبي هريرة، وعبد الله بن أزيهر الدوسي، انظر: ابن حزم، علي. جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٣٨١، ٣٨٢؛ الخطيب،محمد عجاج. أبو هريرة، مرجع سابق، ٨٥؛ الجاسر،حمد. في سراة غامد وزهران،مرجع سابق، ٢٧٥، ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٦) الواقدي، محمد بن عمر. كتاب المغازي، مرجع سابق، جـ٢، ٦٨٣؛ ابن القيم، شمس الدين. زاد المعاد،مرجع سابق، جـ٣، ٦٢٤، وما بعدها؛ الجاسر،حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٩٣.

الرسـول ﷺ خـرج لمحاربة اليهود في خيـبر فلحقوا به، وأعلنوا إسـلامهم بين يديه، ثم قسـم لهم الرسـول ﷺ من غنيمة خيبر[١]، وجعل شـعارهم مبروراً،، ثم عادوا معه إلى المدينـة فقـال الطفيل: يا رسـول الله لا تفرق بينـي وبين قومي فأنزلهم حـرة الدجاج[٢]. وقال عبدالله بن أزيهر: ((يا رسـول الله إن لي في قومي سـلطة ومكاناً فاجعلني عليهم، فقال رسول الله ﷺ يا أخا دوس: إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فمن صدق الله نجا، ومن آل إلى غير ذلك هلك، إن أعظم قومك ثواباً أعظمهم صدقاً، ويوشك الحق أن يغلب الباطل))[٣] وإذا كان الإسـلام تغلغل في قلوب بعض الزهرانيين قبل فتح مكة فهذا لا يعني أن مجتمع بلاد غامد وزهران أصـبح مسـلماً، لأننا نجد بعض الروايات تذكر أن الرسـول ﷺ أرسل الطفيل بن عمرو الدوسـي مع بعض قومه المسلمين بعد معركة حنين في السنة الثامنة للهجرة لمحاربة من بقي على الوثنية في بلاد غامد وزهران[٤]، وأوصاهم بهدم صـنم عمرو بن حممة الدوسـي الذي يعرف بذي الكفين[٥]، فما كان على الطفيل إلا أن أطاع أمر الرسول ﷺ وطلب النصيحة، فقال ﷺ للطفيل: ((أفش السلام، وابذل الطعام، واسـتح من الله كما يسـتحيي الرجل ذو الهيئة[٦] من أهله، إذا أسأت فأحسن إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين))[٧]، ثم خرج الطفيل بمن معه فحارب بعض المشـركين في بلاد دوس وما حولها، ثم هدم صـنم ذي الكفين، وجعل يحشو النار في جوفه ويقول:

يـا ذا الـكـفـين لـسـتُ مـن عُـبَّـادك   مـيـلادنـا أقــدم مــن مـيــلادك
أنــا حـشـوت الــنــار في فــؤادك[٨]

---

(١) المراجع السابقة.

(٢) ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٤ – ٢٥؛ ابن سعد،محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ١، ٣٥٣. وحرة الدجاج إحدى نواحي المدينة في عهد الرسول ﷺ.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ٣٥٣.

(٤) انظـر: الواقدي،محمد بن عمر. كتاب المغازي، مرجع سـابق، جـ٣، ٩٢٣؛ ابن هشـام، عبدالملك. السـيرة، مرجع سابق، جـ٢، ٢١ وما بعدها؛ ابن جريس غيثان. دراسات، مرجع سابق، جـ١، ٣٢؛ الزهراني،محمد بن مسفر. بلاد زهران، مرجع سابق، ٢١ – ٢٢.

(٥) ذو الكفين: صنم لدوس، وهو مصنوع من الخشب، كان لعمرو بن حممة،وعمرو هذا والد الصحابي الجليل الطفيل الذي أرسـله الرسول ﷺ لهدم هذا الصـنم وإحراقه. انظر: ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ١، ٨٤؛ ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٤٩٤؛ جواد علي. المفصل، مرجع سابق، جـ٦، ٢٧٤ – ٢٧٥.

(٦) أي ذو الصـورة والشـكل الحسـن، أو ذو الوقار. وتقول هيأت للأمر أُهيِّئ، هيئة، وتهيأت تهيؤاً، والهيئة: الشـارة، فيقال فلان حسن الهيئة. ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب، مرجع سابق، جـ١٥، ١٧٠. فعل (هيأ).

(٧) الواقدي،محمد بن عمر. كتاب المغازي، مرجع سابق، جـ٢، ٧٢٢.

(٨) المرجع السـابق، علي بن الحسـين المسـعودي، التنبيه والإشـراف. (بيروت:دار مكتبة الهلال،١٩٨١م)،٢٤٣؛ ابن الجوزي، جمال الدين. صفة الصفوة، مرجع سابق،جـ١، ٦٠٣.

وبعد ذلك رجع الطفيل وبعض قومه وعددهم أربعمئة فقابلوا الرسول ﷺ في الطائف بعد مقدمه إليها بأربعة أيام، وكان معهم دبابة ومنجنيق[(١)]. ويتضح من هذه السرية التي أرسلها الرسول ﷺ مع الطفيل توطيد قدم الإسلام في بلاد غامد وزهران، والقضاء على بقايا المشركين وأوثانهم، ثم تتالت الوفود من هذه البلاد على الرسول ﷺ في المدينة. وتشير بعض المصادر إلى وفد غامد الذي قدم المدينة في شهر رمضان من السنة العاشرة، وهم عشرة نفر، فنزلوا ببقيع الغرقد، ثم لبسوا من صالح ثيابهم، وانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأقروا بالإسلام، وكتب لهم الرسول ﷺ كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأتوا أبي بن كعب فعلّمهم قرآناً، وأجازهم رسول الله ﷺ كما يجيز الوفود، ثم عادوا إلى بلادهم[(٢)].

ويذكر ابن سعد أن وفد سلامان الزهراني الأزدي[(٣)] قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة في شهر شوال من السنة العاشرة، وكانوا سبعة نفر، وعند مقابلته ﷺ كان خارجاً من المسجد إلى جنازة دعي إليها، ((فقالوا السلام عليك يا رسول الله: فقال وعليكم، من أنتم، فقالوا: نحن من سلامان قدمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا))[(٤)]، فقال: الرسول ﷺ لغلامه ثوبان: أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفود، فلما صلى الظهر اجتمع بهم فعلمهم شرائع الإسلام، وأعطى كل واحد منهم خمس أواقٍ فضة، وعادوا إلى بلادهم [(٥)].

(١) للمزيد عن محاربة الطفيل للوثنيين في بلاد دوس وما حولها، انظر: الواقدي،محمد بن عمر. المغازي،مرجع سابق، جـ ٣، ٩٢٣؛ ابن سعد، محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ ٢، ١٥٧؛ ابن هشام،عبدالملك. السيرة، مرجع سابق، جـ ٢، ٢١ – ٢٥، المسعودي، علي. التنبيه،مرجع سابق، ٢٤٩؛ ابن الجوزي،جمال الدين. صفة الصفوة، مرجع سابق، جـ ١، ٦٠٣. وعند عودة الطفيل من بلاد دوس مع قومه، قال لهم الرسول ﷺ "يا معشر الأزد من يحمل رايتكم، فقال الطفيل من كان يحملها في الجاهلية، فقال: أصبتم"، وقيل الذي كان يحملها في الجاهلية أخو النعمان بن الزرافة اللهبي، وهذا ما ذكره الواقدي، أما ابن سعد فذكر أنه النعمان بن بازية اللهبي، وذكر ابن عبد البر أنه النعمان بن الزراع عريف الأزد. انظر: الواقدي، محمد بن عمر. المغازي، مرجع سابق،جـ ٣، ٩٢٣؛ ابن سعد، محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ ٢، ١٥٧ – ١٥٨؛ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (بيروت: دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت)، مج٣، جـ ٥، ١٢٣.

(٢) ابن سعد، محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ ١، ٣٤٥؛ ابن دريد، أبو بكر محمد الحسن، الاشتقاق، مرجع سابق، ٤٩٣؛ الجاسر،حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٨٢. وفي رواية أخرى، انفرد بها ابن سعد، تشير إلى أن الرسول ﷺ كتب إلى أبي ظبيان الأزدي الغامدي يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام ((فأجابه في نفر من قومه بمكة، منهم: مخنف، وعبد الله، وزهير بنو سليم، وعبد شمس بن عفيف بن زهير، هؤلاء بمكة، وقدم عليه بالمدينة الجحن بنٍ المرقع، وجندب بن زهير، وجندبٍ بن كعب، ثم قدم بعد مع الأربعين الحكم بن مغفل، فأتاه بمكة أربعون رجلا، وكتب النبي ﷺ لأبي ظبيان كتاباً، وكانت له صحبة))، انظر: ابن سعد،محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ ١، ٢٧٩ – ٢٨٠.

(٣) ابن سعد، محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ ١، ٣٣٢ – ٣٣٣؛ للمزيد انظر: محمد بن علي الأكوع، الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢ هـ. (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م)، ٨٧.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

وتذكر بعض الروايات أن الرسول ﷺ كان قد كتب إلى أبي ظبيان الأزدي الغامدي(١) يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام، لكننا لم نعثر على نص هذا المكتوب(٢). وفي كتاب آخر أرسله الرسول ﷺ إلى أبي ظبيان عمير بن الحارث الأزدي الغامدي، قال فيه: ((أما بعد: فمن أسلم من غامد فله ما للمسلم، حرم ماله ودمه، ولا يعشر ولا يحشر، وله ما أسلم عليه من أرضه)) (٣).

وتذكر بعض المصادر اسم سعد بن أبي ذئاب الدوسي(٤)، الذي يقول: ((أتيت رسول الله ﷺ فأسلمت فاستعملني على قومي، وجعل لهم ما أسلموا عليه من أموالهم)) (٥).

ويتضح مما سبق أن عموم قبائل غامد وزهران أسلمت ما بين السنة السابعة والعاشرة للهجرة، وتولى شؤون بلادهم بعض الولاة الدوسيين والغامديين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ في كل من مكة والمدينة، كالطفيل بن عمرو، وأبو ظبيان، وسعد بن أبي ذئاب، لكن قبل وفاة الرسول ﷺ حدث ظهور بعض الكذابين المدعين للنبوة أمثال عبهلة، الملقب بـ (الأسود العنسي) في بلاد اليمن وما حولها(٦)، فاتخذ صنعاء نقطة

---

(١) أبو ظبيان الغامدي: هو عبد شمس بن الحارث بن كثير بن جشم، ترأس وفد غامد إلى الرسول ﷺ، وكان في جيش سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية، وهو القائل:

أنا أبو ظبيان غير المكذبة ... أبي أبو العنقاء وخالي اللهبة
أكرم من يعلم بين ثعلبة

انظر: إسماعيل بن القاسم القالي،الأمالي، (بيروت، د. ن، د. ت)، جـ ٢، ٢٧٦؛ الجاسر،حمد . في سراة غامد وزهران، ٢٨٢.

(٢) ابن سعد، محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ ١، ٢٨٠؛ الأكوع؛ محمد. الوثائق، مرجع سابق، ٨٧؛ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م)، ٢٤٠. هناك وفود ورسائل عديدة متبادلة بين الرسول ﷺ وأهل تهامة والسراة، بمن فيهم سكان منطقة الباحة (الغامديون والزهرانيون)، وفيها إعلان لسكان هذه البلاد عن إسلامهم أمام رسول الله ﷺ، أو عن طريق وفودهم، ثم إقرارهم من قبل الرسول ﷺ على بلادهم، على أن يقيموا حدود الله في أوطانهم، ومن صيغ تلك الكتب التي كان يدونها الرسول ﷺ لتلك الوفود قوله ﷺ ((بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لجنادة الأزدي وقومه ومن تبعه: ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا من المغانم خمس الله، وسهم النبي ﷺ، وفارقوا المشركين، فإن لهم ذمة الله، وذمة محمد بن عبد الله))، انظر: الأكوع،محمد. الوثائق، مرجع سابق، ٨٦؛ حميد الله،محمد. مجموعة الوثائق، مرجع سابق، ٢٣٨ – ٢٣٩.

(٣) حميد الله، محمد. مجموعة الوثائق، مرجع سابق، ٢٤٠؛ ويذكر الأكوع أن الرسول ﷺ كتب كتاباً لعمر بن عبد الله الأزدي من غامد وضح له فيه شرائع الإسلام، وذلك في شهر رمضان سنة عشر، ولم يرو نص الكتاب؛ الأكوع،محمد. مجموعة الوثائق، مرجع سابق، ٨٧.

(٤) يذكر ابن حجر أن اسم هذا الصحابي هو: سعد بن أبي ذئاب، ويذكر ابن الأثير أن اسمه (سعد بن أبي ذباب)، وفي اعتقادنا أن الاسم الصحيح ما أورده ابن حجر. للمزيد انظر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة،(بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت) (مصورة من طبعة كلكتا، ١٨٥٣ م)، مج ٢، جـ ٣، ٨٦؛ ابن الأثير، عز الدين . أسد الغابة، مرجع سابق، جـ ٢، ٢٧٦.

(٥) المرجعان السابقان.

(٦) لمزيد من التفصيلات عن الأسود العنسي وتحركاته السياسية بين صنعاء والطائف، انظر: الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ ٣، ٢٣٠ وما بعدها.

انطلاقه نحو الشمال حتى سيطر على مناطق عديدة بين صنعاء والطائف، وكانت بلاد الباحة من المناطق التي نالها وما حولها الأذى من هذا المدّعي الكذاب[١]. وعند سماع الرسول ﷺ بظهور الأسود العنسي وسوء فعاله أرسل إلى عموم ولاته وجميع المسلمين في البلاد الممتدة من مكة والطائف حتى اليمن يحثهم على التمسك بدين الإسلام، والثبات في تصديهم للأسود العنسي، وحذرهم من الارتداد عن دين الله. ثم أرسل جرير بن عبدالله البجلي مع بعض صحابته،- رضوان الله عليهم- إلى سروات غامد وزهران وما جاورها كي يتصدوا للمرتدين والمؤيدين للأسود العنسي في تلك النواحي[٢]، وبعد خروج جرير من المدينة تجاه سروات الباحة، وما يقع جنوبها من السروات جاءه نبأ وفاة الرسول ﷺ فعاد إلى المدينة دون أن يواصل مهمته، وربما أن خبر وفاة الرسول ﷺ فجع جريراً ومن كان معه من المسلمين فعاد إلى المدينة كي يقف على مجريات الأحداث فيها.

ونجد أن بعض رجال غامد وزهران تألموا لموت الرسول ﷺ، وكذلك مما قام به الأسود العنسي ومن سانده من أهل الردة، فهذا سواد بن قارب الدوسي الزهراني يحث قومه على التمسك بدين الله وعدم الرجوع إلى غيره، فقال في بعض خطبه لقومه: ((يا معشر الأزد إن سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم، ومن شقاوتهم ألاّ يتعظوا إلاّ بأنفسهم، وأن من لم تنفعه التجارب ضرّته، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل... إلخ))[٣]. وقد سمع له قومه وتمسكوا بالإسلام فقال في ذلك:

جَلَّتْ مُصيبَتُكَ الغَداةَ سَواد ... وأَرَى المُصيبَةَ بَعْدَها تَزْدادُ
أَبْقَى لَنَا فَقْدُ النَّبي مُحَمَّد ... صَلّى الإلهُ عَلَيه مَا يَعْتادُ
حُزْناً لَعَمْرُكَ في الفُؤاد مُخامِراً ... أو هَلْ لِمَنْ فَقَدَ النَّبيَّ فُؤادُ
كُنَّا نَحلُّ بِه جَناباً مُمْرِعاً ... جَفَّ الجَنابُ فَأجْدَبَ الرُوَّادُ
فَبَكَتْ عَلَيه أَرْضُنا وَسَماؤُنا ... وَتَصَدَّعَتْ وَجْداً بِه الأَكْبادُ
كَانَ العَيانُ هُوَ الطَّريفُ وَحُزْنُه ... بَاق لَعَمْرُكَ في النُّفُوس تلاد
إنَّ النَّبي وَفاتُه كَحَياته ... الحَقُّ حَقٌّ والجِهادُ جِهادُ
لَوْ قيلَ تَفْدُون النَّبيَّ مُحَمَّداً ... بُذلَتْ لَهُ الأَمْوالُ وَالأَولادُ
وَتَسارَعَتْ فيه النُّفُوسُ بِبَذْلها ... هَذا لَهُ الأَغْيابُ والأَشْهادُ
هَذا وَهَذا لا يَرُدُّ نَبيَّنا ... لَوْ كانَ يَفْديه فَداهُ سَوادُ

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق؛ عبدالرحمن بن خلدون، تاريخ بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، (بيروت : دار الفكر، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م)، جـ٢، ٤٩٣.

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، الروض الأنف، (القاهرة: مطبعة الجمالية، ١٣٣٢ هـ)، جـ١، ١٤٠.

إنَّي أُحَـــاذِرُ وَالحَـــوَادِثُ جَـمَّـةٌ أَمْـــراً عاصفاً ريحـه إرْعَـــادُ
إنْ حَـلَّ مـنْـه مَـا يُـخَـافُ فَـأَنْـتُـمُ لـلأَرْض إنْ رَجَـفَـتْ بِـنَـا أَوتَـادُ
لَـو زَادَ قَـوم فَـوقَ منية صَـاحِـبٍ زُدْتُمْ وَلَـيسَ لِمَنِيَّـةِ مُـــزْدَادُ[1]

ثالثاً- تاريخ الباحة في العهد الراشدي:

وعند عودة جرير البجلي وصحبه إلى المدينة المنورة وجدوا المسلمين قد اجتمعوا على تنصيب أبي بكر الصديق خليفة للرسول ﷺ، ووجدوا أبا بكر غير راض عن رجوعهم من المهمة التي كلفهم بها الرسول ﷺ، فما كان منهم إلاّ الذهاب إلى أرضّ السراة لمحاربة من ارتد من عشائر وقبائل تلك البلاد، فساروا إلى بلاد بجيلة وخثعم ودوس والحجر وغيرهم فحاربوا من ارتدَّ أو عاد إلى الوثنية وتغلبوا عليهم[2].

والواقع أن المرتدين في بلاد غامد وزهران كانوا قلة، وبخاصة إذا قورنوا ببقية أجزاء شبه الجزيرة العربية[3] فالأسود العنسي- كما أشرنا- ظهر في حواضر اليمن الكبرى، ثم مدَّ نفوذه شمالاً حتى نجران وجرش وسروات غامد وزهران، ووجد بعض المؤيدين لدعوته في تلك الأجزاء بل وجد من بين أهل تلك البلاد من يتولَّى قيادات عامة ينوبون عنه في السير بحركة الارتداد في أوطانهم، فيقنعون من بقي على دين الإسلام، ويحببون إليهم الردة، أو يهاجمون من يقف في طريقهم من مسلمي البلاد أنفسهم، أو من سيأتي من قبل المدينة المنورة وما حولها ويحاربونهم. ومن أولئك المؤيدين للعنسي عمرو بن معدي كَرب الزُبيدي بأرض جنب (قحطان) وخثعم المجاورين لمنطقة الباحة من الجنوب الذي تزعم وفد زُبيد عندما قدموا إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم أمام الرسول ﷺ، وبعد ظهور العنسي ارتد عمرو وانضم إلى حزب المرتدين، فجعله العنسي نائباً عنه في البلاد الممتدة من نجران جنوباً إلى بيشة والباحة وتربة شمالاً[4]، وبرز إلى جانب عمرو مع العنسي قيس بن عبد يغوث الأزدي المرادي الذي ولاه العنسي إمرة الجيش العامة، كما شارك مع العنسي معاوية بن قيس الجنبي، ويزيد بن الأفكل الأزدي، وجميعهم من قبائل السراة

(١) الزهراني، محمد. بلاد زهران، مرجع سابق،٢٣.
(٢) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ٣، ٣٢٢؛ ابن خلدون، عبدالرحمن. تاريخ، جـ٢، ٤٩٣.
(٣) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ٣، ٣٢٢-٣٤٢.
(٤) لتفصيلات أكثر عن شخصية عمرو بن معدي كرب منذ العصر الجاهلي حتى إسلامه ثم ارتداده، انظر: الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ٢، ٢٣٠-٢٣١؛ ابن هشام، عبد الملك. السيرة، مرجع سابق،جـ٤، ٢٣٠-٢٣١؛ ابن سعد،محمد. الطبقات، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٨؛ محمد بن عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٢٤٠-٢٤٢؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة وآخرين. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، جـ١، ١٢٤، ٣١٨-٣١٩.

الواقعة بين نجران والطائف [١]. ويورد الطبري تجمع بعض الأفراد من عشائر بجيلة، وخثعم، وغامد وزهران، وأفخاذ أخرى في تهامة والسراة، ثم انضوائهم تحت زعامة حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي، ثم إعلانهم ارتدادهم[٢] وربما اتحدوا مع أعوان الأسود العنسي، ونهجوا نهج المرتدين في شبه الجزيرة العربية، وبخاصة امتناعهم عن دفع الزكاة، وعدم التقيد ببعض أحكام الإسلام.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كم كان حجم المرتدين في منطقة الباحة؟ والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال صعبة؛ لأن المصادر الأولى لا تسعفنا بمعلومات وافرة حتى نستطيع من خلالها معرفة حجم حركة الارتداد في البلاد المعنية بالدراسة في هذا البحث، ولكن في اعتقادنا ـ وكما أشرنا سابقاً ـ أن حجمها كان أقل بكثير من حجمها في أجزاء أخرى من شبه الجزيرة، بدليل أنه عندما عزم الخليفة أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – على محاربة المرتدين في كل مكان، فإنه لم يرسل جيشاً خاصاً إلى تلك البلاد، وإنما أرسل جيشاً مر بمكة المكرمة ثم الطائف، ثم سلك طريقه عبر السراة حتى وصل صنعاء في اليمن، ومرور مثل ذلك الجيش بسروات الطائف، وغامد وزهران، وجرش (عسير) جعله يصطدم ببعض المرتدين الذين يبدو أن حجمهم وخطرهم لم يصل إلى مستوى خطورة وحجم جماعة مسيلمة الكذاب أو طليحة بن خويلد الأسدي أو مالك بن نويرة ومن ارتد معهم، أو غيرهم في أطراف أخرى من جزيرة العرب[٣].

ولم يكتف الخليفة أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – برد جرير بن عبدالله البجلي ومن كان معه إلى حيث أرسلهم الرسول ﷺ من أرض السروات، وإنما أصدر تعليمات أخرى إلى عماله في مكة المكرمة والطائف يأمرهم أن يرسلوا البعوث إلى الباحة وعسير (تهامة وسراة)، بل إلى أجزاء عديدة من بلاد اليمن ليجمعوا من بقي على الإسلام هناك، ثم يجاهدوا بهم من ارتد عن دين الله، فما كان من أمير مكة المكرمة عتاب بن أسيد، إلاّ الامتثال لأمر الخليفة، وأرسل أخاه خالد بن أسيد إلى الأجزاء التهامية الواقعة جنوب مكة المكرمة والممتدة إلى بلاد اليمن[٤]. كذلك أرسل والي الطائف، عثمان بن أبي العاص بعثاً إلى بلاد السروات الممتدة من جنوب الطائف إلى اليمن، فذهب ذلك البعث حتى اجتمع بجرير بن عبدالله البجلي في وسط السراة ببلاد دوس وخثعم والحجر، ثم ذهبوا جميعاً حتى التقوا بحميضة البارقي، ومن كان معه من المرتدين في سراة جرش

(١) الطبري،محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ ٣، ٢٣٠ – ٢٣٢.
(٢) المرجع السابق، جـ ٣، ٣٢١ – ٣٣٢.
(٣) المرجع السابق، جـ ٣، ٢٢٣ – ٣٤٢.
(٤) المرجع السابق، جـ ٣، ٣١٩ – ٣٢٠؛ ابن خلدون، عبد الرحمن. تاريخ ابن خلدون، مرجع سابق، جـ ٢، ٤٩١.

(عسير) فحاربوهم حتى هزموهم ومزقوهم شر ممزق[١]، وفر قائدهم حميضة بن النعمان البارقي[٢] فارتجل عثمان بن أبي ربيعة شعراً في هزيمتهم قائلاً:

فضضنا جمعهم والنقع كاب ... وقد تعدي على الغدر الفتوق
وأبرق بارق لما التقينا ... فعادت خلّبا تلك البروق[٣]

كما أدى إصرار الخليفة أبي بكر على قتال المرتدين إلى تجهيز جيوش عديدة في المدينة، ثم أرسل كل واحد منها إلى ناحية لكي يتصدى للمرتدين، فكان نصيب بلاد تهامة والسراة واليمن جيشاً أرسله تحت قيادة المهاجر بن أبي أمية، فخرج ذلك الجيش متوجهاً صوب مكة المكرمة والطائف، ثم تحرك جنوباً إلى سروات الباحة وجرش (عسير) حتى اليمن. وفي سروات غامد وزهران التقى المهاجر بن أبي أمية بجرير بن عبدالله، ومن هناك واصل الرجلان سيرهما إلى بلاد جرش (عسير) السروية، وعند منتصف الطريق التقى المهاجر الذي كانت له قيادة الجيوش بعبدالرحمن بن أبي العاص قائد الجيش بإمرة والي الطائف عثمان بن أبي العاص. وانضم لهذه الجيوش أيضاً عبدالله بن ثور من تهامة فواصل الجميع سيرهم عبر بلاد الحجر، وبيشة وجرش حتى قدموا على بلاد نجران وما والاها من بلاد اليمن[٤]. وبعد معارك كثيرة وصراع طويل تمكن القادة المسلمون من إحراز النصر، وتلا ذلك هزيمة المرتدين واستسلامهم في النهاية وعودتهم إلى الإسلام، الأمر الذي أدى إلى أن صارت بلاد نجران وجرش (عسير) والباحة (سراة وتهامة) جزءاً من أجزاء الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة أبي بكر الصديق[٥].

وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية في تاريخ الخليفة أبي بكر الصديق ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين، وهي مرحلة الفتوحات الإسلامية، فانخرط الكثير من التهاميين والسرويين بمنطقة الباحة في جيوش المسلمين مثل غيرهم من عرب شبه الجزيرة العربية، وأبلوا بلاء حسناً في فتح بلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس، وفارس وغيرها، وعمل

---

(١) الطبري،محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ ٣، ٣٢٠ – ٣٢٢، ٣٢٨.

(٢) كان أغلبهم من قبائل الأزد وخثعم، ولكن بعد هزيمة حميضة ومن ارتد معه، ثم تفريق جمعهم، عاد بعضهم إلى الإسلام، وفيما يظهر أن حميضة نفسه عاد إلى الإسلام، إذ نرى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثه مع سعد بن أبي وقاص إلى العراق لمحاربة الفرس. الطبري،محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ ٣، ٤٨٤.

(٣) المرجع السابق، جـ ٣، ٣٢٠.

(٤) المرجع السابق، جـ ٣، ٣٢٢، ٣٢٦ – ٣٣٠.

(٥) انظر: محمد بن أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م)، جـ١، ٧١ وما بعدها؛ وللمؤلف نفسه، التاريخ الأدبي لمنطقة جازان، (جازان: نادي جازان الأدبي،١٤١١هـ/١٩٩٠م)، جـ ١، ٢٥ وما بعدها؛ وانظر: أحمد بن عمر الزيلعي، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان (المخلاف السليماني) في العصور الإسلامية والوسيطة، (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م)، ٢٥ وما بعدها، وللمؤلف نفسه، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ق ٣-٩ هـ/ ٩-١٥ م"، مجلة كلية الآداب، ع ٧، (الكويت: جامعة الكويت، كلية الآداب،١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م)، ١-٧٧.

الكثير منهم على نشر الإسلام في تلك البقاع الإسلامية الجديدة واستقر بعضهم في بعض الحواضر من تلك الأمصار، ثم شاركوا في كثير من الأنشطة السياسية والحضارية.

والملاحظ أن المصادر الإسلامية المبكرة لا تفصح عن الأحداث التي وقعت في منطقة الباحة، أو ما يعرف ببلاد "غامد وزهران"، وإنما تشير فقط إلى بعض الوقائع التي حدثت في بعض أجزائها، مع أن تلك الإشارات غير دقيقة إلى حدٍّ ما، لا في تسمية الأمكنة، ولا في دور الحواضر بشكل مفصل، الأمر الذي لا يروي ظمأ القارئ إلى معرفة الأوضاع السياسية والحضارية لهذه الأجزاء من هذه البلاد، وهو بدوره لا يشكل إلا جزءاً محدوداً من المنطقة الجغرافية الواسعة التي أطلقنا عليها بلاد تهامة والسراة. وفي اعتقادي أن بلاد غامد وزهران (تهامة وسراة) لم تتغير في وضعها السياسي خلال القرنين الأولين ولا سيما بعد الانتهاء من حروب الردة، ثم صارت من الأجزاء التابعة للخلافة الإسلامية في المدينة المنورة، إذ عيّن الخليفة أبو بكر - رضي الله عنه - عليها والياً ينظم شؤون الناس، ثم سار من بعده الخلفاء الراشدون في تعيين ولاة على أهل تهامة والسراة يقومون على إدارة شؤونهم، والفصل في خصوماتهم، وجباية زكاة أموالهم[(١)].

وإذا حاولنا معرفة الدور الذي قامت به بلاد غامد وزهران وغيرها من بلاد تهامة والسراة في بعض الأحداث السياسية التي ألمت بالدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، وبخاصة في الفتنة الكبرى في عهد الخليفة عثمان بن عفان، والعلاقة بين الخليفة علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما- نجد أن سكان هذه البلاد أسوة بغيرها من سكان الجزيرة العربية قد انخرطوا - بالتأكيد - في هذه الفتنة، ومنهم من انضم إلى الخليفتين الراشدين عثمان وعلي -رضي الله عنهما-، ومنهم من كان ضدهما، وبخاصة الذين هاجروا من بلادهم وتوزعوا في الأمصار الإسلامية من الحجاز إلى الشام، ومصر، والعراق، وبلاد فارس[(٢)]. أما سكان منطقة الباحة المقيمون في أوطانهم فلا تذكر لنا المصادر تفصيلات عن تفاعلهم مع أحداث تلك الحقبة الصعبة،

(١) صالح أحمد العلي، "إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى" مجلة أبحاث، مج ١-٤ س ٢١ (١٩٦٨م) ٣-٥٧. ويذكر أن سعد بن أبي ذئاب الدوسي الزهراني كان والياً للرسول ﷺ على قومه في بلاد زهران، وبقي في عمله إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وتشير بعض الروايات إلى أن سعداً قدم على قومه في عهد عمر، فقال: ((يا قوم أدوا زكاة العسل فإنه لا خير في مال لا تؤدى زكاته، قالوا كما ترى، قال العشر، فأخذ منهم العشر فبعث به إلى عمر فجعله في صدقات المسلمين))؛ ابن الأثير، عز الدين. أسد الغابة، مرجع سابق،جـ٢، ٢٧٦؛ ابن حجر، شهاب الدين. الإصابة، مرجع سابق، مج ٢، جـ ٣، ٧٦؛ ابن جريس، غيثان. دراسات في تاريخ تهامة والسراة، مرجع سابق، جـ ١، ٥٧ وما بعدها؛ الجاسر، حمد. في سراة غامد وزهران، مرجع سابق، ٢٨٠ وما بعدها.

(٢) أبو محمد أحمد الكوفي بن أعثم، كتاب الفتوح، (بيروت: دار الندوة الجديدة/ مصورة من طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، الدكن، الهند، د. ت)، جـ ٤، ٥٣ - ٦٩؛ القاضي أبو بكر محمد بن العربي، العواصم من القواصم في مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، تحقيق: محب الدين الخطيب. (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٩٦ هـ)، ٦١ - ١١٠.

ولكننا لا نستبعد تأثيرهم وتأثرهم بالأحداث، خصوصاً أنهم يقيمون في منطقة حساسة تربط بلاد اليمن بالحجاز. وإن لم يكن تأثيرهم مباشراً فربما كان عاطفياً ونفسياً.

رابعاً- تاريخ الباحة في العهدين الأموي والعباسي وما بعدهما:

١ - الآثار السلبية على انتقال الخلافة من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق.

ساد الاضطراب شبه الجزيرة العربية عموماً ومنطقة الباحة بشكل خاص بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، وأهمل ذكرها في طيات المصادر، واستمر ذلك الإهمال والنسيان خلال العصر الإسلامي الوسيط، ولعل ذلك يرجع إلى عدد من الأسباب يأتي في مقدمتها انتقال حاضرة الخلافة الإسلامية، ومركز الثقل السياسي والزعامة من الحجاز إلى خارجه، أي من المدينة المنورة إلى خارج شبه الجزيرة العربية، حيث انتقلت العاصمة أولاً إلى الكوفة في عهد الخليفه علي بن أبي طالب، ثم إلى دمشق في بلاد الشام ثم إلى بلاد العراق، وقد أدى انتقال السلطة المركزية، والزعامة السياسية، لخارج الجزيرة العربية إلى ظهور عدد من المشكلات والعقبات السياسية التي كان لها انعكاسها على النواحي الحضارية، نذكر منها:

أ- تقلص الدور السياسي لشبه الجزيرة العربية فتحولت جميع أجزائها إلى مجرد ولاية عادية ضمن ولايات الدولة الإسلامية، بعد أن كانت مقراً للسلطة المركزية في عصري الرسالة والخلافة الراشدة، ولم تعد تشكل أهمية عند خلفاء بني أمية وبني العباس، فيما عدا حواضر الحجاز الكبرى التي ظلت لها مكانتها الدينية والسياسية في هذين العصرين لكونهما - مكة المكرمة والمدينة المنورة- مقراً للحرمين الشريفين بما لهما من مكانة مقدسة في نفوس المسلمين، كما أن السيطرة عليهما، والقائم على خدمتهما وإسباغ الحماية عليهما، يحوز الرضا والتأييد السياسي والروحي من عامة المسلمين وخاصتهم فترتفع مكانتهم، وبالتالي تتحقق المكاسب السياسية لأولئك الساسة لكونهم رعاة للمقدسات الإسلامية.

ب- أصبحت أجزاء شبه الجزيرة العربية الأخرى خلاف مكة المكرمة والمدينة المنورة المقدستين، منذ عصري بني أمية وبني العباس وعلى مر القرون الإسلامية الوسيطة هامشية، تحت مظلة تلك الحكومات، فلم تعد لها الأهمية والقدر اللذان كانت عليهما في عصري الرسالة والخلفاء الراشدين، ويعود ذلك في رأينا إلى البعد الجغرافي لمعظم أجزاء الجزيرة العربية عن الحاضرة السياسية للدولة الإسلامية ويرجع -أحيانا- إلى صعوبة التضاريس، ما أثر في سهولة الاتصالات فيما بين تلك البقاع والعاصمة، وهذان السببان نلاحظهما في بلاد السروات التي تعد بلاد غامد وزهران (تهامة وسراة) جزءاً منها.

وإذا ما سعينا لتقديم دراسة تاريخية حضارية لمنطقة الباحة خلال هذه الفترة، نجد أن الأمر يزداد غموضاً لأن العقبات المذكورة أعلاه تكاد تشمل أغلب نواحي شبه الجزيرة العربية باستثناء بلاد الحجاز إلى حد ما، فإذا ما تطرقنا لمحاولة تقديم دراسة عن تاريخ وحضارة منطقة صغيرة من شبه الجزيرة العربية مثل أرض غامد وزهران وما شابهها فإننا نقابل بصمت المصادر تقريباً عن إفادتنا بأي شيء حيال هذا الأمر، فالعلماء وأرباب القلم لا يذهبون غالباً وأبداً إلا إلى المواطن التي يجدون فيها الدعم والرعاية، حيث تصنع الأحداث السياسية، ويقيم الحكام، ويزداد الثراء الحضاري، وهذا لا يتوافر إلا في الحواضر الكبرى وعليه فقد توافدوا على بلاط خلفاء بني أمية وبني العباس وأمرائهم ليكونوا قريبين من الأحداث وصنع القرار، فتركز اهتمامهم على التأريخ للدول وشخصيات الحكام دون الاهتمام بالتأريخ لموضوعات متخصصة إلا في القليل النادر، وإن كانوا قد دونوا شيئاً في مصنفاتهم عن تاريخ وأدب وحضارة بلاد بعيدة عن مواطنهم ومواقع استقرارهم مثل البلاد المعنية في هذه الدراسة وغيرها من النواحي الصغيرة، فذلك لا يكون إلا اعتماداً على الرواية الشفهية، أو بالاطلاع على بعض المصادر المحلية لتلك الأوطان وغالباً ما تكون تلك المصادر نادرة أو معدومة. وتزداد الأمور صعوبة على الباحث إذا ما تطرق إلى الدراسات الحضارية حيث يصادف ندرة في المعلومات التي تتصل بعدد من جوانب الموضوع، لتركيز المؤرخين في كتاباتهم على التأريخ السياسي، الأمر الذي جعل الجوانب الحضارية والاهتمام بها يضيع في زحام الصراعات السياسية، فقد يقرأ الباحث كتباً عديدة دون أن يجد نصاً واحداً يتناول مظهراً من مظاهر التاريخ الحضاري لمنطقة ما.

فعلى سبيل المثال إذا ما طالعنا المصادر الإسلامية على اختلافها من تاريخية وجغرافية وأدبية لنرى ما دونته عن منطقة الباحة في العصرين الأموي والعباسي، نكاد لا نظفر بطائل، حيث اعتراها الإهمال، ومر المصنفون عليها وعلى ما جرى فيها من وقائع وأحداث دون أن يتناولوها سواء بإيجاز أو تفصيل، فمثلاً إذا حاولنا معرفة طبيعة النظام الإداري هناك، فإن المصادر لا تمدنا بمعلومات واضحة أو صريحة عن ذلك، فكل ما أشارت إليه في هذا الصدد ذكر أسماء الولاة المعيَّنين من قبل خلفاء بني أمية، وكذلك بني العباس على الحجاز أو اليمن أو البحرين دون أن تفصِّل لَنا ماهية الأوضاع الإدارية في تلك الأجزاء الصغيرة [1].

---

(١) انظر: تقي الدين محمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: لجنة من العلماء. (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، جـ٢، ١٦٦ – ١٦٧؛ العلي، صالح أحمد "إدارة الحجاز في العصور الإسلامية الأولى"، مرجع سابق، ٣ – ٥٧.

Hugh. Kennedy, ((Centeral government and Provincial elites in the early Abbasid Caliphate)) Bulletin of the School of Oriental and African Studies , 44((1981), 26 – 38. S.B. Samadi "Some Aspects of the theory of State and Administration Under the Abbasids" Islamic culture, 29 (1955) ,120–150, Elie Salem, Muslim Administration Islamic Culture, 33 (1959), 19–30.

وبالنسبة إلى منطقة الباحة – موضوع هذا البحث – فقد تعدى عدم الاهتمام بذكرها، وإهمال وقائعها في بطون المصادر للتاريخ الحضاري ليشمل تاريخها السياسي أيضاً، فبدءاً من العصر الأموي لا نكاد نجد في طيات المصادر على اختلافها وتنوعها ما يشفي غليل الباحث من المعلومات المتصلة بهذه البلاد ودورها السياسي والحضاري، وكل ما نعثر عليه لا يزيد على شذرات متناثرة وأغلبها يعالج موضوع الثورات وحركات العصيان السياسي التي شهدتها أرجاء شبه الجزيرة العربية بعامة، والمناطق الغربية والجنوبية الغربية منها بخاصة ونعني بها الحجاز واليمن، وتأتي أرض غامد وزهران وما يجاورها ضمنها.

٢ - بعض الفتن والحركات السياسية :

أ- ثورة أبي حمزة الخارجي:

ويدعى المختار بن عوف الأزدي السلمي الدوسي الزهراني، ومستقره في مدينة البصرة بالعراق، وكان معاصراً للخليفة الأموي مروان بن محمد الجعدي ١٢٧–١٣٢هـ (٧٤٤–٧٤٩م) وقد اعتاد أبو حمزة ارتياد مكة المكرمة في كل مواسم الحج لنشر مذهبه الخارجي وتحريض الناس على الفتنة، بغية القضاء على الخلافة الأموية، وخلع مروان بن محمد. وفي عام (١٢٨هـ/٧٤٥م) التقى (المختار) بأحد رجال حضرموت ويدعى، عبد الله بن يحيى الكندي الذي اقتنع بدعوته، ودعاه للذهاب معه إلى حضرموت لنشر دعوته بين قومه، وأشارت بعض المصادر إلى أن الكندي رغَّبه في ذلك بقوله: ((**إنني رجل مطاع في قومي فاذهب معي إلى بلادي لتجد النصرة والمنعة**)) ، وبالفعل استحسن أبو حمزة الرأي، وخرج بصحبة الكندي إلى بلاد حضرموت، حيث طفق أبو حمزة ينشر أفكاره، ودعا بالخلافة إلى عبدالله بن يحيى الكندي الذي تلقب بـ"طالب الحق"،ثم اجتمع من حولهما عدد كبير من بلاد حضرموت وما حولها، فتكون لهما جيش كبير توجها به إلى مدينة صنعاء فاستولوا عليها وطردوا عمال بني أمية منها، ثم امتد نفوذهما حيث خرج أبو حمزة الخارجي على رأس جيش قوامه ألف رجل فعبر بلاد صعدة ونجران وسروات عسير والباحة حتى دخلوا مكة المكرمة فاستولوا عليها وواصلوا طريقهم شمالاً إلى المدينة المنورة فاستطاعوا السيطرة عليها[١]، ووصلت أخبار تلك الحركة الخارجية واستيلائها

---

(١) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ ٧، ٣٧٤–٣٧٦، ٣٩٣–٤٠٢؛ علي بن أبي الكرم بن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: نخبة من العلماء. (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م)، جـ ٤، ٩٧؛ أبو الحسن علي الخزرجي، الكفاية والأعلام، الجزء الخاص باليمن في عهد الولاة من تحقيق: راضي دغفوس. (تونس: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٩ م) ٧٤ – ٧٥؛ يحيى بن الحسين بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م)، جـ ١، ١٢٤ – ١٢٥.

علـى أغلب بلاد اليمن والسـروات والحجاز إلى مسـامع الخليفة مروان بـن محمد فأعدّ جيشـاً قوامه أربعة آلاف مقاتل وأسند قيادته إلى عبدالملك بن عطية السعدي عام ١٣٠هـ (٧٤٧م)، فخرج على رأس هذا الجيش قاصـداً المدينـة المنورة، ونجح في إلحاق الهزيمة بأبي حمزة الخارجي، الذي خرج فاراً إلى مكة المكرمة، فلحق به ابن عطية ليهزمه للمرة الثانية، ويتمكن من قتله، وتشتيت شمل أنصاره، ثم حز رأسه وأرسله إلى مروان بن محمد ومعه كتاب يبشره فيه بالنصر وقهر الخوارج[١].

أما أنصار الخارجي، فقد عاد من نجا منهم إلى صنعاء مروراً بسراة غامد وزهران، وأجـزاء من بـلاد نجران، وأخبروا طالب الحق بالهزيمة، فخـرج على رأس مجموعة من أنصاره إلى أرض نجران ثم بيشة والباحة، ومنها اتجه إلى الطائف ليأخذ بثأر أبي حمزة ورجالـه، ويمنـع زحف الجيش الأموي على اليمن، فالتقى بأبـي عطية في نواحي الطائف، حيـث ألحـق القائد الأمـوي الهزيمة بطالب الحـق وقتله مع عدد كبير مـن رجاله، ومزق الخوارج كل ممزق، ولم ينج إلا من لاذ بالفرار إلى صـنعاء، وتشـير المصادر إلى تفاصيل المعركة حيث تذكر صمود الخوارج وذودهم عن أنفسهم ببسالة إلى أن تمكن الأمويون من زعيمهم (طالب الحق) فقتلوه، عندئذ فتّ في عضدهم وهزموا [٢].

لم يكتـف ابن عطية بالقضـاء علـى الخوارج في الحجـاز، وقتل أبي حمـزة، وطالب الحق بل رأى ضـرورة استئصال شـأفتهم بالكلية من بلاد اليمن، فتوجه عبر أرض غامد وزهران، وجرش (عسـير) حتى وصل نجران ثم صـنعاء فغادرها أتباع طالب الحق، وما زال ابن عطية يلاحقهم في كل صقع من أصقاع اليمن حتى قتلهم وأبادهم [٣].

ب- ثورات العلويين وغيرهم :

وتتابعت الفتن وحركات المعارضـة ضـد خلافة بنـي العباس. وكانـت الحجاز وبلاد اليمـن وما بينها أرض تهامة والسـراة، مسـرحاً لعدد من هذه الثورات، ولا سـيما ثورات العلويين الذين كانوا من أكثر العناصـر شـغباً، حيث أثاروا عدداً من القلاقل في وجه بني العباس، وهددوا استقرار الخلافة وسيطرة عمالها في تلك البلاد[٤].

---

(١) الطبري، محمد. تاريخ، مرجع سـابق،جـ٧، ٣٩٣؛ الخزرجي، علي. الكفاية، مرجع سـابق، ٧٤؛ ابن القاسم، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مرجع سابق، جـ١، ١٢٤-١٢٥.

(٢) الطبري محمد. تاريخ،مرجع سابق، جـ٧، ٣٩٣ – ٣٩٤؛ الخزرجي،علي. الكفاية، مرجع سابق، ٧٤ – ٧٥.

(٣) ابن القاسم، يحيى بن الحسين، الهادي. غاية الأماني، مرجع سابق، جـ١، ١٢٤- ١٢٦، وللمزيد انظر: ابن الأثير، علي. الكامل،مرجع سابق، جـ٤، ٢٩٧.

(٤) للمزيد عن ثورات العلويين ضـد العباسـيين خلال القرنين (٢-٣ هـ/ ٨- ٩م)، انظـر: الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ٧، ٥١٧ وما بعدها، جـ٨، ١٩٣ –٢٠٣، ٥٢٨ – ٥٣٣، جـ٩، ٢٧١ – ٢٧٦.

وتشير المصادر إلى أن العلويين قد انتهزوا نشوب النزاع بين الأمين والمأمون، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لنشر دعوتهم في البلاد، فخرج محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا على المأمون بالكوفة عام ١٩٩هـ (٨١٤م)، وصار يدعو إلى آل الرضا من آل محمد، وعاونه في نشر دعوته قائد جنده أبو السرايا ابن منصور الشيباني الذي استولى على الكوفة، وطرد ولاة بني العباس منها [١]. وعندما توفي محمد بن إبراهيم ولى أبو السرايا بدله غلاماً من العلويين يدعى محمد بن محمد بن يزيد، ثم أرسل ولاة من العلويين إلى مكة والمدينة وبلاد السراة واليمن، وكان داود بن عيسى بن موسى والياً لأمور مكة والمدينة من قبل الخلافة العباسية، حينما وجه أبو السرايا إلى مكة حسين بن حسن الأفطس العلوي، وإلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فدخلوها دون قتال، وقد شجع ذلك بعض العلويين بزعامة إبراهيم بن موسى بن جعفر وجماعة من أهل بيته بمكة على مد الثورة إلى بلاد السراة فشملت الطائف، وامتدت حتى وصلت إلى تربة وبلاد غامد وزهران وجرش (عسير)، فيما وصلت إلى نجران وصنعاء دون مقاومة تذكر، حتى إن إسحاق بن موسى بن عيسى بن عباس والي اليمن من قبل المأمون عندما سمع بقدوم إبراهيم بن موسى فرّ هارباً [٢]. وتذكر المصادر أن إبراهيم بن موسى نكل بكل من اعترض طريقه، وأسرف في القتل حتى لقب بالجزار، واستولى على كثير من الأموال والذخائر خلال الطريق من الحجاز إلى الباحة ونجران ثم صنعاء [٣].

وبعد أن تمت السيطرة للعلويين على اليمن، رغب إبراهيم بن موسى العودة إلى مكة المكرمة والمدينة لإحكام السيطرة عليهما فخرج من اليمن قاصداً الحجاز عبر بلاد نجران وجرش والباحة حتى وصل إلى مكة، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها، حيث سبقه الخليفة المأمون بإرسال جيش كبير إليها عام ٢٠٠هـ (٨١٥م) بقيادة إسحاق بن هارون الرشيد لحفظ الأمن في الحرمين، وقمع أي بادرة للفتنة والعصيان، وتصدى هذا الجيش لإبراهيم بن موسى وألحق به الهزيمة، وفرق جموعه وعاد إلى اليمن مهزوماً، وضاعت هيبته، وبخاصة بعد هزيمته، ومقتل أبي السرايا في بلاد العراق على يد جيش عباسي آخر لتنتهي أحداث هذه الثورة العلوية التي كادت تفصل بلاد الحجاز والسراة ونجران وصعدة وصنعاء عن بلاد الخلافة العباسية [٤].

---

(١) المرجع السابق، جـ٨، ٥٢٨ – ٥٣٦؛ ابن الأثير،علي. الكامل، مرجع سابق، جـ٥، ١٧٣ – ١٧٧.

(٢) الطبري،محمد بن جرير، تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ٨، ٥٢٩ – ٥٤٠.

(٣) المرجع السابق، جـ٨، ٥٣٥ – ٣٥٦؛ ابن الأثير، علي. الكامل،مرجع سابق، جـ٥، ١٧٧؛ مطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، تحقيق: س. هورت. (باريس: د. ن، ١٩١٦ م)، جـ٦، ١٠٩.

(٤) اليعقوبي،أحمد. تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، جـ٢، ٤٤٨؛ الطبري،محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ٨، ٥٣٥ وما بعدها ؛ ابن الأثير، علي . الكامل، مرجع سابق، جـ٥، ١٧٧.

ومنذ القرن الثالث الهجري،التاسع الميلادي بدأ الضعف يدبُّ في جسم الخلافة العباسية، فقام بعض أهل السروات وتهامة وأعلنوا انفصالهم عن ولاية الحجاز، وقام أمير من الحراميين في حلي بن يعقوب بتهامة(١)، واستقل ابن طرف بمخلاف حكم في منطقة جازان (٢)، وقامت فتنة في بلاد عك والأشاعرة في بعض الأجزاء من تهامة (٣). ولم يأت عصر الخليفة العباسي المأمون إلاّ وبعض من أجزاء مخاليف السروات، ومنها: بلاد الباحة، ونجران، واليمن، وبعض الأجزاء التهامية قد أعلنت ثورتها واستقلالها عن الخلافة، وعندئذ التفت المأمون في جدّية إلى تلك المناطق الجنوبية، فبعث محمد بن زياد إلى حرب الأشاعرة، والعكيين في تهامة، وكانوا أكثر الأطراف خطورة تجاه الخلافة في تلك البلاد، وقال له: ((**أسمعني صوتهم**))، أي يقاتلهم بقوة لا هوادة فيها، فوصل ابن زياد مزوداً بالمال والرجال وأهل الرأي، وتمكن من إخماد الأشاعرة وغيرهم، بل التنكيل بهم(٤). وتفرغ لسكان السروات وتهامة والمناطق الأخرى التي أعلنت انفصالها عن الولايات التابعة لها، فاستعمل الترغيب والترهيب ودعوة المنشقين إلى الوحدة، وعدم الخروج عن الجماعة، والرجوع إلى طاعة الخليفة، وتعهد بإرجاع كل منهم إلى إمارته، فوافقوا وعادوا إلى الطاعة، وقاموا بإرسال الخراج، ولكن هذا الأمر لم يستمر، فبعد موت محمد بن زياد، جاء من بعده أمراء ضعاف فلم يستطيعوا إحكام القبضة على البلاد التي كانت في حوزة الدولة الزيادية، فقام كل أمير أو شيخ قبيلة يستقل بناحيته، أما مخاليف تهامة والسراة الممتدة من شمال نجران حتى الطائف، فقد بقيت شكلياً أو إسمياً مرتبطة بعامل الحجاز (٥).

٣ - الأوضاع العامة لبلاد الباحة وما جاورها بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

وبعد القرنين: الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، لا نجد ما يوضح لنا تاريخ بلاد غامد وزهران وما حولها، وإنما أشارت بعض المصادر إلى أحداث

---

(١) العقيلي،محمد بن أحمد. تاريخ، مرجع سابق، جـ ١، ٦٧؛ البلادي، عاتق بن غيث. بين مكة وحضرموت،مرجع سابق، ١٧٦ – ١٧٧، ٢٠٠؛ الزيلعي، أحمد. "المواقع الإسلامية المندثرة..."، مرجع سابق، ٩ وما بعدها.

(٢) للمزيد عن سليمان بن طرف الحكمي، حاكم مخلاف حكم خلال العصور الإسلامية المبكرة، انظر: العقيلي، محمد بن أحمد. تاريخ،مرجع سابق، جـ ١، ٧١، وما بعدها؛ الزيلعي، أحمد، الأوضاع السياسية،مرجع سابق، ١٢ وما بعدها.

(٣) انظر الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم، مرجع سابق، جـ ٣، ٣٢٠ – ٣٢١؛ عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا. (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م)، مج ٢، جـ ٣، ٩٦٢.

(٤) عبد الله الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، (بيروت: منشورات العصر الحديث، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م)، ١٠٥ – ١٠٧؛ محمد بن أحمد العقيلي، التاريخ الأدبي لمنطقة جازان، (جازان: نادي جازان الأدبي، ١٤١١هـ)، جـ ١، ١٧ – ٢٠.

(٥) الجرافي،عبدالله. المقتطف، مرجع سابق، ١٠٥ – ١٠٧؛ العلي، صالح أحمد. "إدارة الحجاز..."، مرجع سابق، ٢٤ وما بعدها.

سياسـية حدثت في بلاد اليمن أو بلاد تهامة أو السـراة، الواقعة إلى الجنوب من مدينتي الطائف ومكة المكرمة التي اكتسـبت صـبغة العمومية، وأحياناً نجد فيها شـذرات تشـير إلى تاريخ المدن الكبرى مثل: زبيد، وصـعدة، وصـنعاء، وهي أسماء لا تعطينا ما نريده عن تاريخ الديار الغامدية والزهرانية في العصر الإسلامي الوسيط، ولا تبين لنا مدى مشاركة أهلها في المضـمار الحضاري للحواضر السابقة الذكر. ولعل في كتب الجغرافيا والرحلات ما يلقي بصيصـاً من الضـوء على بـلاد غامد وزهران خلال الفترة محـل البحث، حيث جرت العادة أن تذكر الكتب محل الإشـارة السـروات وتهامة الواقعة بين نجران وجازان جنوبـاً والطائف ومكة شـمالاً، وفيها بلاد غامد وزهران، وبخاصـة عندمـا تذكر الطرق التجارية المارة بها والواصلة بين حواضر اليمن والحجاز.

فابـن الفقيه يقول: ((.... **سـراة بين تهامـة ونجد أدناها بالطائف، وأقصـاها قرب صـنعاء، والسـروات أرض عالية، وجبال مشـرفة على البحر من الغرب وعلى نجد من الشـرق، والطائف من سـراة بني ثقيف، وهو أدنى السروات إلى مكة، ومعدن البـرم هي السـراة الثانيـة، بـلاد عـدوان في برية العـرب، وبها معـدن البلـور...**))[١] ويذكر ياقوت معلومـات جيـدة، ومكملة لما ذكره ابـن الفقيه فيقول "... **والسـراة الثالثـة أرض عالية وجبـال مشـرفة علـى البحـر الأحمـر مـن الغـرب وعلى نجـد من الشـرق، وسـراة بني شـبابة...**"[٢]، ثم يشـير إلى بعض الأجزاء الواقعة إلى الغرب من السـروات فيورد الآتي ((... **وبأسفل السروات أودية تصب إلى البحر الأحمر منها: الليث، وقنونا، والأحسبة، وضـنكان، وعشـم، وبيش، ومركوب، وعليب**))[٣]. ويتفق كل من القزويني وياقوت الحموي على أن أهل السراة القاطنين من الطائف شمالاً حتى صعدة جنوباً من أفصح الناس لغة، وأكثر مَنْ اتسـمت ألسـنتهم ببلاغة القول، كهذيل القاطنة بجوار الطائف، وبجيلة وثقيف وأزد السراة (غامد وزهران) وما جاورها بلاغة وبياناً[٤]. وزيادة في القول يضيف المقدسي من أبناء القرن الرابع الهجري (العاشـر الميلادي)، معلومات أكثر تفصـيلاً من سابقيه، فيذكر أسماء بعض المواقع ما بين صعدة ونجران جنوباً والطائف شمالاً، حيث يقول:

((**القبائـل تأخـذ من السـروات نحو أهل الشـام فتقع في أرض الأغرّ بن هيثم، ثم تخرج إلى ديار يعلى بن أبي يعلى، ثم إلى سردد، ثم إلى ديار عنز بن وائل في بني غزية،**

(١) أبـو بكـر أحمـد بن الفقيه، كتاب البلـدان، تحقيق: أم. دي. خويـة. (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤ م)، ٣١ – ٣٢.

(٢) ياقوت،شهاب الدين. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ٣، ٢٠٤ – ٢٠٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) زكريا محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م)، ٨٩؛ ياقوت، شـهاب الدين. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ٣، ٢٠٥.

ثم تقع في ديار جرش، والعتل وجلاجل، ثم إلى ديار الشقرة وبها خثعم، ثم في ديار الحارث (غامد وزهران) ثم في شكر وعامر، ثم في بجيلة، ثم في فهم، ثم في بني عاصم، ثم في عدوان، ثم في بني سلول، ثم في مطار....))[١]. ويستدل ممّا ذكره المقدسي أنه ربط ما بين ذكر الأمكنة الواقعة ما بين صعدة والطائف والقبائل القاطنة فيها.

ويشير ابن المجاور من مؤرخي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، إلى معلومات تختص بالنواحي السياسية والحضارية لأهل تهامة والسراة، لا نجدها عند غيره، فيقول: ((**فأمّا السرو فإنها قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان، بل مشايخ منهم، وفيهم بطون متفرقون....))** [٢]، وفي مكان آخر يتحدث عن المناطق الواقعة بين صعدة والطائف، وبخاصة الأجزاء السروية الممتدة من نجران إلى غامد ودوس بن زهران فيذكر أن تلك المناطق جميعها قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر، ثم إن كل قرية مقيمة بأهلها، وكل فخذ أو بطن من البدو في قرية، ومن جورهم لا يسكن قراهم ولا ينزلها أحد سواهم، ثم يواصل حديثه عن تلك الأجزاء وأهلها فيقول: ((**وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص، وكل واحد من أهل القرية له مخزن في القصر يخزن فيه جميع ما يكون له من حوزه وملكه، ولا يأخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محيطين بالقصر من أربع ترابيعه، ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير عليهم ويحكم فيهم، وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون خراجا، ولا يسلمون قطعة وكل واحد منهم مع هوى نفسه، وبهذا لا يزال القتال دأبهم ويتغلب بعضهم على مال بعض، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طول الدهر على هذا الفن، وجميع زرعهم الحنطة والشعير وشجرهم الكروم والرمان واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات، وأكلهم السمن والعسل، وهم في دعة الله وأمانه، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب....))** [٣].

وهكذا أورد لنا ابن المجاور من رحالة القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) نصاً يؤكد ما تحويه منطقة سروات غامد وزهران وجرش (عسير) وما جاورها من حصون ومخازن لغرض الحرب وتخزين المواد الغذائية عند الحاجة، وما نشاهده الآن

(١) أبو عبد الله شمس الدين المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: أم. دي. خوية. (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٧ م)، ١٠٤.

(٢) جمال الدين يوسف بن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى تاريخ المستبصر، (ليدن: مطبعة برايل،١٩٥١– ١٩٥٤م)، جـ ١، ٢٦.

(٣) المرجع السابق، جـ ١، ٢٧.

في هذه البلاد ما هو إلا رموز تدل على صحة الروايات السابقة. وقد تبين لنا في مقابلاتنا مع كبار السن في عدد من الأمكنة من بلاد غامد وزهران التهامية والسروية حول الحصون ومهامها أن لها مهمّتين: مهمّة حربية، ومهمّة اقتصادية إذ تعد هذه الحصون مستودعات لخزن الحبوب. كما تبين لنا من الأقوال والمشاهدة أن البنية الاجتماعية في تلك المناطق تعتمد على القبيلة التي تعد الوحدة الأساسية في المجتمع، ويعد شيخ القبيلة هو السيد الحاكم لا ينازعه أحد في سلطان، وهو الذي يعلن الحرب، وهو الذي يطفئها مع المشايخ الآخرين، ولهذا ينعم بقية الأفراد في المجتمع القبلي بالأمن بمقدار ما يمنحه الشيخ لهم، ويصحب المعارك عادة السلب والنهب، وتسود شريعة الغاب، فالقوة هي الحق، وليس الحق هو القوة. كما يذكر ابن المجاور بعض العادات التي كانت جارية بين أهل جرش (عسير) والباحة، حيث كان الرجال يخضبون أيديهم وأرجلهم مثلهم مثل النساء في مناسبات الأعياد والزواج وغيرها[(١)]. كما ذكر عن السرويين بعض العادات في الجنائز فقال: ((**وأهل السراة يرثون البنت عند الموت... وللقوم عصبية عظيمة، فإذا مات أحدهم لا يحمل جنازته إلا الشبان، ومع ذلك يقولون: سلّم سلمك الله هذا ما وعد الله نعم القاضي! وهم يتداولون بالنعش إلى المقبرة، وهم الذين يحفرون القبر....**))[(٢)]. ومن أطعمتهم اللحم، والسمن، والخبز، ومن أكثر الأسماء شيوعاً بينهم سالم، وغانم، وقاسم، ومفرج، ومفرح، وراشد، وناجي، وجابر، ولاحق، وصابر، وسعيد، ومساعد، وظافر، وفاتك، ومالك وغيرها أسماء كثيرة [(٣)]. ومن اهتمامهم بالضيف، أنه إذا أطعم لصّ أو قاتل طعام صاحب البيت، فإنه لا يقتل إلا بعد خروجه من البيت، وبعد مدة من الزمن حتى ينتهي مفعول الطعام الذي أكله[(٤)]. ويشير ابن المجاور أيضاً إلى بعض عادات السرويين الغامديين والدوسيين ومن جاورهم في الكرم، خصوصاً الذين تغلب عليهم البداوة، ومنها أنهم يؤخرون الغداء أو العشاء من أجل ضيف يقدم عليهم، فإن حصل ذلك ينحر له على قدر مكانته، فقد ينحر له جمل ويقدم له رأسه، وإن كان عابر سبيل تذبح له شاة، ويقسم صاحب الدار الرغيف إلى ثلاثة أو أربعة أقسام يضعها أمام الضيف تكريماً له، ثم يقدم له اللحم المطبوخ بعد أن يثرد عليه الخبز، ويهرق عليه السمن أو المرق، فيشرب بادئ الأمر المرق، ثم يوزع اللحم على الثريد، وقد يطلق أحياناً،

---

(١) ابن المجاور، جمال الدين. صفة بلاد اليمن، مرجع سابق، جـ ١، ٧، ٢٧. ومثل هذه العادات لا تزال مألوفة بين بعض سكان مناطق الباحة وعسير في الأجزاء التهامية والسروية، وبخاصة عند كبار السن من الرجال.

(٢) المرجع السابق، جـ ١، ٢٥.

(٣) المرجع السابق، ومن الأسماء الشائعة عند أهل غامد وزهران في وقتنا الحاضر: عيضة، وعطية، وجمعان، وصالح، ومعيض (الباحث) .

(٤) المرجع السابق، جـ ٢، ٢٣٤.

على هذا الصنف من الطعام اسم العربية[١]، ومن عادات السرويين من نجران حتى الطائف أيضاً أن يكون في مخازنهم صنفان من الحبوب، ذرة وقمح، يقدم خبز القمح للضيف، وخبز الذرة للأسرة، وينم هذا السلوك عن إيثار الضيف وتقديمه على الأهل. وما قصة الرجل الذي ينحر بعيره لضيوفه، أو يقدم لهم أفضل ما لديه وهو في حالة الفقر، إلا دليل واضح على أعلى مراتب الإيثار.

وإشارة ابن المجاور إلى أن بلاد تهامة والسراة بما فيها أرض غامد وزهران كانت تحكم بشيوخ القبائل المستقلين بسلطتهم في ديارهم قول نوافقه عليه من حيث المبدأ، ومن حيث المركز الاجتماعي الذي عرف لشيوخ القبائل العربية على مرِّ التاريخ قبل الإسلام وبعده[٢]، ولكن الذي عرف في ظل الدولة الإسلامية، وبخاصة بعد انتقال الخلافة من الحجاز إلى بلاد الشام ثم العراق في العهدين الأموي ثم العباسي أن شبه الجزيرة العربية تحولت إلى عدد من الولايات التابعة لمركز الخلافة، ومن أكبر ولايات شبه الجزيرة العربية منطقتا الحجاز واليمن، وبخاصة الأجزاء التي تشمل الحواضر الحجازية واليمنية الكبرى، فيما بقيت منطقة الباحة الواقعة بين المنطقتين السابقتين تابعة في أغلب الأحيان لوالي الحجاز الذي يتخذ مكة المكرمة أو المدينة المنورة مقراً له[٣]. ومن الواضح في بعض كتب التراث الإسلامي، خصوصاً كتب الجغرافيا والرحلات، أن منطقة تهامة والسراة كانت مقسمة إلى مناطق أو مراكز حضارية، ويطلق على كل قسم إما مخلاف أو عمل (جمعها أعمال)، أو كورة (جمعها كور). فاليعقوبي تحت عنوان سماه (مكة وأعمالها) قام بذكر أجزاء عديدة تابعة من الناحية الإدارية لوالي مكة المكرمة، ومن تلك الأعمال الواقعة إلى الجنوب من مكة والطائف ذكر ما يلي في الأجزاء السروية: ((**تبالة وأهلها خثعم، ونجران لبني الحارث بن كعب، فقد كانت منازلهم في الجاهلية، والسراة (غامد وزهران) وأهلها من الأزد**))[٤]. وفي الأجزاء التهامية أشار إلى عشم، وذكر أنها معدن الذهب، وبيش، والسرين، والأحسبة، وعثر، وكل هذه المناطق تقع على ساحل البحر الأحمر ما بين مكة المكرمة شمالاً وجازان جنوباً[٥]. وفي موضع آخر ذكر أن لليمن أربعة وثمانين مخلافاً، وأغلبها حول حواضر اليمن الكبرى، ولكنه أورد بعض الأجزاء التي تقع

(١) المرجع السابق، جـ ٢، ٢٣٢.

(٢) للمزيد عن شيوخ القبائل وسعة نفوذهم من العصر الجاهلي، انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، مرجع سابق، جـ ٤، ٥ – ٢٧١، جـ ٥، ٢٥٣ – ٣٣٣.

(٣) الفاسي، تقي الدين. شفاء الغرام، مرجع سابق، جـ ٢، ٢٦٢ – ٢٦٥؛ العلي، صالح أحمد. "إدارة الحجاز..."، مرجع سابق، ٣٣ وما بعدها.

(٤) اليعقوبي، أحمد. تاريخ، مرجع سابق، جـ ٢، ٣١٦.

(٥) المرجع السابق، ٣١٦، ٣١٨.

ضمن مساحة دراستنا، مثل: جرش وتبالة في بلاد السراة، وبيش، وقنونا، ويبه، وضنكان، والعرش من جازان في الأجزاء التهامية[١]. ويورد ابن خرداذبة بعض الإيضاحات عن مخاليف مكة المكرمة، فيذكر أن الطائف، وعكاظ، وبيشة، وتبالة، وجرش، والسراة[٢]، ونجران في الأجزاء السروية، وضنكان، وعشم، وبيش في الأجزاء التهامية، وجميعها تابعة لإمارة مكة المكرمة أو الحجاز بشكل عام[٣]. ويخالف المقدسي اليعقوبي وابن خرداذبة في بعض ما ذكر حيث يورد أن نجران، وجرش، وتربة، والسراة في الأجزاء الجبلية، وبيش، وعثر، وحلي، والسرين من مخاليف اليمن[٤]. ولكن الإدريسي يخالف المقدسي ويتفق مع اليعقوبي وابن خرداذبة فيقول عن بعض مخاليف مكة، وبخاصة الواقعة بين الطائف ونجران ((**ولمكة مخاليف وهي الحصون، فمنها بنجد الطائف ونجران... وتربة وبيشة وجرش والسراة**)) ثم يضيف ضنكان، والسرين، وعشم، وبيش في الأجزاء التهامية [٥]. وبهذه الأقوال نستطيع القول: إن عموم بلاد تهامة والسراة كانت في الغالب تابعة لولاية مكة المكرمة، بل وأثبتت بعض الروايات التاريخية أنَّ والي الحجاز كان في بعض الأحيان يمنح تعييناً من الخليفة يتضمن ولايته على الحجاز واليمن معاً، وأحياناً أخرى تضاف له ولاية بلاد اليمامة إلى جانب المنطقتين السابقتين[٦]. أما المنطقة التي تقع بين الحجاز واليمن، التي أطلقنا عليها اسم (تهامة والسراة) ومنطقة الباحة (غامد وزهران) جزء منها، فمن دون شك أنها كانت تتبع إدارياً لوالي مكة المكرمة من حيث دفع الزكاة إلى بيت مال المسلمين، وبالتالي يكون الولاء للخلافة الإسلامية، لكن الذي لا شك فيه أن ما أشار إليه ابن المجاور من حيث اضطراب الأمن وانتشار الفوضى بين أهل هذه البلاد كان أمراً واقعاً، بل إن شيوخ القبائل كانوا إلى عهد قريب، أقوى عنصر في المجتمع، فكانوا أصحاب الحل والعقد، بل وإليهم تؤول الأمور الخاصة بأبناء مجتمعاتهم، والخاصة بالعلاقات الخارجية بينهم وبين غيرهم من خارج حدود منطقتهم.

ولم يكن سكان منطقة الباحة أو عموم التهاميين والسرويين منغلقين على أنفسهم، بل كان بعضهم يسافر إلى حواضر شبه الجزيرة العربية، وبخاصة مدن الحجاز الكبرى،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) يقصد بكلمة (السراة) هنا: أي بلاد غامد وزهران وما جاورها من السروات بين مدينتي الباحة وأبها.

(٣) أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، تحقيق: أم. دي. خويه. (ليدن: مطبعة بريل.١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٩ م)، ١٣٣.

(٤) المقدسي،شمس الدين. أحسن التقاسيم، مرجع سابق، ٦٩ — ٧٠، ٨٨.

(٥) محمد بن عبد الله الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م)، جـ ١، ١٤٥.

(٦) الفاسي، تقي الدين. شفاء الغرام، مرجع سابق، جـ ٢، ١٦٢ — ١٦٤.

فيعملون بالتجارة، ويؤدون الحج والعمرة، بل ويمتلك بعضهم الدور والعقار [١]. وقد حفظ لنا الجغرافيون والرحالة المسلمون الأوائل بعض المعلومات القيّمة التي تؤكد ذهاب أعداد كبيرة من السرويين مثل (أهل غامد وزهران) إلى مكة المكرمة من أجل أداء واجباتهم الدينية، والمتاجرة في بعض سلعهم التي يجلبونها معهم من بلادهم إلى أسواق مكة أثناء مواسم العمرة في رجب ورمضان وفي موسم الحج، وأول من شاهدهم ودون لنا ملاحظاته عنهم في أسواق مكة المكرمة، الرحالة الفارسي ناصر خسرو خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، حيث أشار إلى كثرتهم في مكة في أول رجب من كل سنة، وفي عيد الفطر، وفي موسم الحج[٢]. وفي القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع زار مكة المكرمة رحالة أندلسي، هو محمد بن جبير، فوصف أحوال السرويين الذين يأتون من بلاد الباحة وما حولها إلى مكة المكرمة ومعهم قوافل الأرزاق، والفواكه، والشّمل، مبدياً سروره وإعجابه بذلك، ووصف أولئك القوم البسطاء ـ حسب ما شاهدهم ـ بالشجاعة، والنجدة، والمروءة[٣]. ويؤكد الرحالة ابن المجاور ما ذكره كل من ناصر خسرو وابن جبير، فيشير إلى أن سرويي منطقة الباحة وما جاورها من السروات الممتدة من اليمن إلى الحجاز إذا دخلوا مكة المكرمة ملؤوها من الحنطة، والشعير، والسويق، والعسل، والذرة، والدخن، والزبيب، واللوز، وما يشابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة: ((**حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمنا نكسب منه القوت**))[٤]. وعندما زار ابن بطوطة مكة المكرمة في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادي)، شاهد السرو من أهل غامد وزهران وغيرهم من بلاد تهامة والسراة في أسواقها يبيعون ويشترون، وشاهدهم يطوفون حول الكعبة يؤدون الحج أو العمرة، وقد أورد في رحلته نبذاً مما شاهده في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، فقال:

((**.... ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز فترخص الأسعار بمكة، ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق. ولولا أهل هذه البلاد. (ويقصد أهل السراة) لكان أهل مكة في شظف من العيش. ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم، ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم، ووقع الموت في مواشيهم، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم، وظهرت فيهم البركة ونمت أموالهم. فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها، اجتمعت نساؤهم فأخرجنهم، وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين.**

(١) محمد أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، (بيروت: دار الكتب، د. ت)، ١٠٢ — ١٠٤.
(٢) أبو معين ناصر خسرو. سفر نامة، (رحلة ناصر خسرو)، ترجمها من الفارسية: أحمد خالد البدلي. (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٣ م)، ١٤١.
(٣) ابن جبير، أحمد. رحلة، مرجع سابق، ١٠٢ — ١٠٥.
(٤) ابن المجاور، جمال الدين. صفة بلاد اليمن، ج ١، ٢٧.

وبلاد السرو مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد. وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب، وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولها باسطي أيديهم، مؤمنّين على أدعيتهم، ولا يمكن غيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك. وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطرق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم))[١].

وليس ابن بطوطة هو الذي انفرد بهذه التفصيلات، بل ذكرها بالإضافة إليه بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة فأثنوا على خصوبة تربة السراة وكثرة خيراتها، وعلى ما تحلّى به أهلها من الشجاعة والسلوك الجيد والقيم الطيبة[٢]، وسكان بلاد غامد وزهران كانوا يتأثرون ويؤثرون فيما حولهم من بلاد تهامة والسراة، أو في بلاد الحجاز التي كانوا على صلات سياسية وحضارية بها منذ العهد الجاهلي وخلال العصور الإسلامية المختلفة. وربما كان موقع بلادهم الواقعة على الطريق التي تربط بين اليمن والحجاز من الأسباب الرئيسية التي جعلت سكان هذه البلاد يكونون على علم بما يدور من أحداث في الحواضر الكبرى من شبه الجزيرة العربية مثل: مكة المكرمة والمدينة المنورة وصنعاء وغيرها[٣].

خامساً - الخاتمة : النتائج وتوصيات الدراسة :

ونخلص في نهاية هذه الدراسة إلى العديد من النتائج والتوصيات التي نذكرها في النقاط التالية :

أ - البحث في التاريخ الإسلامي وبخاصة عن مناطق أو مواضع تفتقر إلى المادة العلمية، قد تضع الباحث في حرج شديد للإجابة على كثير من الأسئلة. وبلاد

---

(١) أبو عبد الله محمد بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م)، جـ ١، ١٥٢.

(٢) للمزيد عن توافر الحبوب والخيرات في بلاد الباحة وما جاورها من البلاد التهامية والسروية، انظر: عرام بن الأصبغ السلمي. كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق: عبد السلام هارون. (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥م)، ٤١٧، ٤٢٠-٤٢١؛ القزويني، زكريا محمد. آثار البلاد وأخبار العباد، مرجع سابق، ٨٩؛ ابن جبير، محمد أحمد. رحلة، مرجع سابق، ١٠٤؛ ياقوت، شهاب الدين. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ ٣، ٢٠٥؛ ابن المجاور، جمال الدين. صفة بلاد اليمن، مرجع سابق. جـ ١، ٢٦-٢٧.

(٣) وللمزيد عن بعض الكتب التي تفيد الباحث والقارئ عن بلاد تهامة والسراة، والتي منطقة الباحة جزء منها، وكذلك اليمن والحجاز وعلاقتهما بسروات غامد وزهران وما جاورها انظر، حسن بن ابراهيم الفقيه. مخلاف عشم، (الرياض : مطابع الفرزدق، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م)، ٧٩ وما بعدها، أحمد الزيلعي. نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عليب (الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م)، ٣٠ وما بعدها، ابن جريس، غيثان. دراسات في تاريخ تهامة والسراة، مرجع سابق، جـ ١، ٢٣ وما بعدها .

الباحة من البلاد الغنية برجالها وخيراتها على مر التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط والحديث، ولكن موقعها بين منطقتين كبيرتين هما :. الحجاز واليمن جعل المؤرخين وأرباب القلم لا يذكرونها إلا قليلاً، وأحياناً كثيرة ترد أسماء بعض مواقعها أو أعلامها مروراً سريعاً بين طيات السطور، دون أن يخرج القاري بفائدة كبيرة لما يقرؤه عن هذه الديار .

ب - نلحظ ذكر تاريخ سكان منطقة الباحة (غامد وزهران) معلوماً إلى حد ما خلال عصري الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، مع أن هناك جوانب كثيرة لازلنا نبحث عن إجابات لها أثناء تلك الفترة أما عصور بني أمية وبني العباس حتى بداية العصر الحديث فلا زلنا نواجه عقبات كبيرة جداً لمعرفة تاريخ هذه الأوطان . وإذا نظرنا في عموم المصادر الإسلامية، تاريخية وأدبية، ولغوية، ورحلات، وغيرها فاننا لا نجد ضالتنا عن تاريخ بلاد غامد وزهران وما جاورها من أرض تهامة والسراة . وبالتالي فإنني أرى الأتي :

١ - عدم اليأس في الحصول على صورة تاريخية شبه واضحة عن هذه البلاد، وبإمكاننا معرفة بعض الشيء من خلال المصادر التي كتبت عن الحجاز واليمن على مر التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط، وهي كثيرة، ثم مقارنة ما ورد بها مع تركيبة المجتمع الغامدي والزهراني والاستنتاج بأن هناك الكثير من المتشابهات وبخاصة في الجوانب الحضارية المختلفة، وكذلك السياسية والفكرية التي قد تحدث في اليمن والحجاز وتتخذ من بلاد تهامة والسراة طريقاً لها أثناء الذهاب والإياب بين مكة وصنعاء .

٢ - لازلنا نشاهد في منطقة الباحة الكثير من النقوش والرسوم القديمة التي بعضها يعود إلى فترات سابقة للإسلام، وبالتالي فإن الدراسات الأثرية هي من أفضل المصادر التي قد تفيدنا في إيضاح كثير من الصور عن تاريخ هذه الأرض ذات الموقع الإستراتيجي والتي تربط بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها . وأنادي جميع الأقسام العلمية الأكاديمية وكذلك المقتدرين مالياً إلى تشجيع ودعم الدراسات الأثرية القيمة التي تخدم تراث هذه البلاد وغيرها من أجزاء شبه الجزيرة العربية الغنية بموادها الآثارية المختلفة .

ج- الغالب على طبيعة بلاد غامد وزهران سيادة الطابع القبلي في نظمه وأعرافه وعاداته وتقاليده، ولهذا فالقبيلة بعشائرها وبطونها كانت ولازالت إلى وقت قريب في الجزيرة العربية هي صاحبة السيادة، وشيوخ القبائل وأعيانها

ووجهائها هم الذين لهم الكلمة الفصل بين أفراد قبائلهم وعشائرهم . وإذا كان هناك قوى خارجية في الحجاز أو اليمن أو في بلاط الخلافة الإسلامية ترغب الاتصال بأهالي الباحة (الغامديون والزهرانيون) فإن ذلك لا يتم إلا عن طريق أولئك الشيوخ والأعيان . ومن المؤسف حقاً أننا لا نجد في المصادر الإسلامية المبكرة والوسيطة صورة واضحة تؤكد أقوالنا، لكننا على يقين مما نقول، لأن أمراء الحجاز، أو خلفاء بني أمية وبني العباس ومن جاء بعدهم من الأمم، كانوا في بادي الأمر يبحثون في جميع ولاياتهم عن الوجهاء والشيوخ والأعيان كي يقربوهم، وبالتالي يعينونهم على تطبيق سياسة الخلافة أو الإمارة في بلادهم .

د. نقول للباحثين والمتخصصين والأقسام العلمية والأدبية ومراكز البحث العلمي وأرباب الثروات والمقتدرين أننا بحاجة إلى دراسات وأبحاث علميه جادة عن منطقة الباحة وغيرها من مناطق بلادنا الغالية، ونحن للأسف لازلنا نلمس القصور العلمي الذي يوجد في مراكزنا ومكتبتنا العلمية، ولا يمكن سد هذا النقص إلا بتضافر الجهود، وتشجيع الباحثين الجادين والمراكز العلمية البحثية الجيدة كي تعكف على دراسة تراثنا وتاريخنا وفكرنا ومعتقداتنا وثرواتنا وفلكلورنا وكل ماله فائدة علمية وثقافيه لبلادنا ومجتمعاتنا .